رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

معاذ السرطاوي

مختارات من

الشعر العربي الحديث

دراسة وتحليل

محمود سامي البارودي
احمد شوقي
حافظ ابراهيم
بدر شاكر السيّاب
مصطفى وهبي التلّ
محمود درويش
ابو القاسم الشابي

دار
المستقبل للنشر والتوزيع

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مختارات من الشعر العربي الحديث

تاليف / معـاذ السرطاوي

دار
المستقبل للنشر والتوزيع
عمان ـ الاردن

٩ر١ ع ٨
معا معاذ السرطاوي
مختارات من الشعر العربي الحديث / معاذ السرطاوي .ـ
عمان : دار ومكتبة المستقبل للنشر والتوزيع ١٩٨٩
(١٣٥) ص
ر.إ (١٩٨٨/١١/٦٦٨)
١ ـ الشعر العربي ـ عصر حديث أ ـ العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

الاهـــــــــــداء

الى من اكرمني الله بشرف ابوته، وفياني ظلال خيره ومحبته
الى أبي..... اطال الله في عمره، ومتعه بنعيم دهره

الى من اغنت ذاكرتي بأحلى ذكرى
وخلفت لي من عمر ذخـرا
الى أمي..... جماع حبي، وملاذ نفسي

المـــؤلف

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس تحليلي بمحتويات الكتاب

الاهـــداء ـــــــــــــــ ٣
المقـــدمة ـــــــــــــــ ٩

رحلة الشعر العربي في العصر الحديث ـــــ ١١

● الفصل الاول ـــــــــــــــــــــــــــــــ ١٧
محمود سامي البارودي ـــــــــــــــــــــــــــ ١٩
١ ـ حياته
٢ ـ صفاته واخلاقه
٣ ـ شعره وشاعريته ومصادرثقافته
أ ـ اسرته
ب ـ بلاط الخديوي
ج ـ مطالعاته الخاصة
د ـ النفـــي
هـ ـ احداث عصره السياسية
٤ ـ مدرسته الشعرية وابرز ميزاتها
أ ـ ديباجته الشعرية
ب ـ توليد المعاني
ج ـ رأيه في الشعر
د ـ طريقته في نظم الشعر
٥ ـ آثـــاره
٦ ـ مناسبة النص «طيف سميرة»
٧ ـ الدراسة الادبية للنص
٨ ـ الدراسة الفنية للنص

● الفصل الثاني ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ٣٩
احمد شوقي ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ٤١
١ ـ حياته
٣ ـ اطواره الشعرية
أ ـ مرحلة ما قبل النفي
ب ـ مرحلة النفـــي
ج ـ مرحلة امارة الشعر
٣ ـ آثاره (الشعر، النثر، المسرحيات)
٤ ـ قصيدته في رثاء عمر المختار
٥ ـ مناسبة القصيدة
٦ ـ الدراسة الادبية للنص
٧ ـ الدراسة الفنية للنص

● الفصل الثالث ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ٥٥
حافظ ابراهيم ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ٥٧
١ ـ حياته
٢ ـ المؤثرات في شعره
أ ـ النوائب التي حلت به
ب ـ الوظائف التي وليها
ج ـ ثقافتـــه
د ـ معرفته بالفرنسية
٣ ـ حافظ والتجديد
٤ ـ اثاره (الشعر، النثر، الترجمات)
٥ ـ مناسبة النص «اللغة العربية تنعى حظها بين اهلها»
٦ ـ النص ودراسته الادبية
٧ ـ الدراسة الفنية للنص

● الفصل الرابع ــــــــــــــــــــــــ ٦٩

بدر شاكر السياب ــــــــــــــــــــــــ ٧١
١ ـ حياته
٢ ـ المؤثرات في شعره
أ ـ الحرمـان
ب ـ انتقاله الى المدينة
ج ـ سجنـــه
د ـ حكايا امه وابيه واجداده

٣ ـ مراحل شعره
أ ـ المرحلة الرومانسية الحالمة
ب ـ مرحلة التمازج بين الرومانسية الحادة والاشتراكية
ج ـ مرحلة الواقعية الجديدة

٤ ـ قصيدته «انشودة المطر»

٥ ـ مناسبة القصيدة

٦ ـ الدراسة الادبية والفنية للنص

● الفصل الخامس ــــــــــــــــــــــــ ٨٩

«مصطفى وهبي التل ــــــــــــــــــــــــ ٩١
١ ـ حياته
٢ ـ شخصيته وآثاره (الشعرية والنثرية)
٣ ـ شعره وشاعريته
٤ ـ مناسبة قصيدته «رثاء الهبر»
٥ ـ النص الشعري ودراسته دراسة ادبية
٦ ـ الدراسة الفنية للنص

● الفصل السادس ـــــــــــــــــــــــ ١٠٣
محمود درويش ـــــــــــــــــــــــ ١٠٥
١ ـ حياته
٢ ـ الشعر وقيمته في نظره
٣ ـ الارض ومفهومها في نظره
٤ ـ اثاره (دواوينه الشعرية، النثر)
٥ ـ قصيدته «يوميات جرح فلسطيني»
٦ ـ الدراسة الادبية والفنية للنص

● الفصل السابع ـــــــــــــــــــــــ ١٣١

ابو القاسم الشابي ـــــــــــــــــــــــ ١٣٣
١ ـ حياته
٢ ـ العوامل المؤثره في شاعريته
أ ـ اسرته
ب ـ مدرسة الديوان
ج ـ الناقد محمد الحليوي
٣ ـ أطواره الشعرية
أ ـ المرحلة الاندلسية
ب ـ مرحلة مواجهة الموت
ج ـ مرحلة الفاجعة والمأساة
٤ ـ اثاره (الشعرية والنثرية)
٥ ـ قصيدته «ارادة الحياة»
٦ ـ الدراسة الادبية
٧ ـ الدراسة الفنية

فهرس المصادر والمراجع ـــــــــــــــــــــــ ١٤٧

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تقديـــــم

هذا الكتاب «مختارات من الشعر العربي الحديث» خلاصة جهد دؤوب، وبحث عميق، ودراسة مستفيضة، وهو درة ادبية نفيسه القيها أمانة في أعناق طلبتنا الاعزاء، واستودعها ذمة مدرسيهم الافاضل ليتعهدوها بالدرس والتمحيص، فان وجدوا فيها تقصيرا شكروا على ما بذلت، وعَفَوا عما اخطأت وقصرت فكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، وان أوفيت الموضوع حقه من البحث والدراسة شكروا وتفكروا فهذا فضل يؤتيه الله من يشاء من عباده، ويبقى هذا الجهد اولا واخيرا دراسة لم تكتمل حلقاتها ولم تتحقق أهدافها وغايتها النبيلة الا بالجهد الموصول لادبائنا ومفكرينا فهي ليست البداية، مثلما انها ليست النهاية، وعليه فقد كانت غايتها الاولى خدمة الادب ودارسيه، والمساهمة الفعالة في رفد الحركة الادبية الحديثة في عالمنا العربي عن طريق دراسة مجموعة من الروائع الشعرية الخالدة اختيرت بعناية من أدبنا العربي الحديث، ألقيت الضوء من خلالها على اهمية الرسالة، وعظم الوظيفة الانسانية والفكرية التي يقدمها هذا الأدب لأمته العربية خلال حقبة كفاحها، وزمن نضالها وتحررها.

أضـف الى ذلك كله فان هناك غاية لا تقـل أهمية عما سبق ذكره وهي اطلاع طلبتنا الاعزاء على الاثر الذي تركته المذاهب الادبية الغربية على ادبنا العربي وادبائنا العرب في المشرق خاصة وان التواصل بين الشرق والغرب اصبح من الامور اليومية المعتادة بين الجانبين.

وقد جاءت موضوعات الكتاب وفصوله مرتبة ترتيبا يتفق وما جاءت به الخطة المعتمدة من قبل وزارة التعليم العالي الموقرة وعليه فقد تناولت في الفصل الاول بالدرس والتحليل قصيدة البارودي في «طيف سميرة» مبينا من خلالها ابرز ميزات شعره وما اثر فيه من احداث ذلك العصر.

أما الفصل الثاني فقد خصص لأمير الشعراء، شاعر الوطنية احمد شوقي وهو يتناول ابرز احداث عصره الاسلامية الا وهي استشهاد عمر المختار شيخ الشهداء وزعيم الثورة الليبية السنوسية التي فجرها ضد المستعمرين الايطاليين والتي كانت بداية النهاية لظلمهم وتعسفهم.

ثم انتقلت في الفصل الثالث الى شاعر النيل وشاعر الشعب معا حافظ ابراهيم الذي أحب العرب والعربية فدافع عنهما دفاع الشرفاء ولذلك قمت بدراسة قصيدته التي يدافع فيها عن اللغة العربية مبينا خلالها ما اتهمت به العربية زورا وبهتانا من القصور والجمود من جانب فئة من المستشرقين ونفر من تلامذتهم المتفرنجين، ولذلك رأينا الشاعر يرد، بعنف على هؤلاء الناعبين والناعقين مبينا ضعف بصرهم بالعربية وقصور بصيرتهم عن فهمها.

اما السياب في «انشودة المطر» فقد احتفل الفصل الرابع من هذا الكتاب بدراسة قصيدته هذه، ولذلك قمت بدراسة هذه القصيدة دراسة ادبية حديثة بينت من خلالها مدى التمازج والترابط ما بين الانسان والارض وتغلب الروح الاشتراكية عليها.

اما عرار الاردن المصلح الاجتماعي وابرز دعاة التغيير في عصره وصاحب المدينة الفاضلة المتصعلك والخارج على مجتمعه وما فيه من عادات وتقاليد فقد تكفل الفصل الخامس ببيان ذلك تفصيلا، فقد درست له قصيدته في «رثاء الهبر» الرمز المرافق له دائما فكشفت من خلالها عن فلسفة الشاعر الانسانية الخاصة به وعن روحه الثائرة المتأججة.

وكان محمود درويش رأس شعراء المقاومة وطليعة شعراء الارض الشباب الذين تغنوا بالارض وجعلوها الام والحبيبة والهوية وقد تناول الفصل السادس قصيدته في الكرمل وعشب الجليل وقد ظهر من خلال هذه الدراسة ابرز ميزات شعر الارض وشعر المقاومة على السواء.

اما الفتى الرومانسي والشاعر الحالم، من رافقته الآلام حتى أودعته منيّته فهو ابو القاسم الشابي الذي اختص الفصل الأخير من هذا الكتاب بدراسة قصيدته «ارادة الحياة» تلك القصيدة التي ناجى فيها الطبيعة بمختلف مظاهرها ليعلي من شأن الارادة الانسانية والطموح الانساني، وليزرع الأمل والتفاؤل ويبعث الثقة في نفس الانسان المضطهده.

وقد اتبعت في دراسة هذه النصوص اسلوبا قريبا الى النفس، سهلا على الفهم بعيدا عن التعقيد او التكلف ولذلك تعرضت في البداية الى حياة الشاعر وميزات شعره والمؤثرات في هذا الشعر وقد شكل هذا مدخلا مناسبا القى الضوء على القصيدة وميزاتها حتى اذا وصلت الى النص درسته دراسة أدبية واعية وشرحته شرحا ادبيا وافيا انتقلت بعدها الى الدراسة الفنية فتناولت بالشرح والتوضيح عاطفة الشاعر واسلوبه والفاظه ومعانيه حتى اذا وصلت الى قصائد الشعر الحر تلك القصائد التي تناولت الارض والانسان فدرستها على ضوء فهم العلاقة بينهما دونما حاجة الى تخصيص دراسة فنية للقصيدة ذلك ان المزج بين الدارستين ضروري لفهم المعنى كاملا فالدراسة الادبية ممزوجة ومكملة للدراسة الفنية لا تنفصل احداهما عن الاخرى، ولذلك رأيتني امزج بين الدراستين.

وبعد فأرجو ان يكون الله تعالى قد وفقني فيما ذهبت اليه، ونفع به كل من يصبو اليه من طالب علم أو باحث مدقق فهو حسبي ونعم الوكيل.

والســـــلام

المؤلف

١٩٨٩

رحلة الشعر العربي في العصر الحديث

لم تكد الدول العربية ترفع عن كاهلها الحكم التركي حتى وقعت فريسة للاستعمار الغربي البغيض الذي لم يكن اقل ظلما وجورا من الحكم التركي في اواخر ايامه.

غير ان الامر كان مختلفا بعض الشيء فالاتراك والجراكسة شكلوا طبقة حاكمة ومتنفذة ومتسلطة لها كل شيء بينما مثل عامة الشعب وسواده الاعظم الطبقة الاخرى التي عليها ان تكدح وتعمل ليل نهار لتعيش الطبقة الاولى حياة راغدة مترفة وتعيش هي عيش الكفاف وما دونه في كثير من الاحيان مما ادى الى تدهور الحياة الاقتصادية بشكل عام وقد عمدت الطبقة الاولى الى تتريك اللغة مما ادى الى انتشار الامية وسيطرة الجهل والخرافات بين العامة وهذا بدوره ادى الى تدهور في الحياة الفكرية والعقلية بشكل عام.

اما الاستعمار الغربي فكان له اساليبه ودسائسه ومؤامرته التي كان ظاهرها الرحمة وباطنها فيه العذاب، فقد تدخلت فرنسا وانجلترا ضد مصر لاخضاع ثورة عرابى بحجة حماية الخديوي كما شجعت الدولتان حركة الاستثمار في مصر بحجة مساعدتها للخروج من ضائقتها المالية ولكن الحقيقة ظهرت بوضوح في ادخال وزير فرنسي وآخر انجليزي في الوزارة المصرية بحجة المراقبة لضمان تسديد ديونها.

وقد استفادت الشعوب من هذا الاستعمار بطريقة غير مباشرة وذلك من خلال ما رافق الجيوش من علماء وادباء والات وعلوم حديثة لم يعرفها العرب من قبل بل ان رؤية المصريين لجيش نابليون بتنظيماته واساليبه حفز المصريين وبخاصة محمد علي الى بناء جيشه على غراره كما رافق المستعمرين الارساليات والبعثات التبشيرية التي جاءت معها بالمطابع والمؤلفات وبنت المدارس والجامعات ورعتها، ومن اقدم تلك المدارس في لبنان مدرسة عينطورة سنة (١٧٣٤) كما انشأ البطريرك اثناسيوس مطبعة في حلب سنة (١٧٠٢) كما وجدت مطبعة دير الشوير بلبنان كما اقيمت الجامعة الامريكية ببيروت سنة (١٨٦٦) وجامعة القديس يوسف سنة (١٨٧٤) والجامعة السورية وكذا الجامعة المصرية سنة (١٩٠٦) كما نشطت حركة الصحافة فأنشأ محمد علي الوقائع المصرية وانشأ سليم وبشاره تقلا جريدة الاهرام سنة (١٨٧٥) وكذا جريدة المقطم على يد سليم ونمر ويعقوب صروف، ثم وجدت الجمعيات والمجامع العلمية مثل المجمع العلمي العربي بدمشق ومجمع اللغة العربية بالقاهرة والمجمع العلمي الشرقي ببيروت.

كما انشئت المكتبات الكبرى مثل المكتبة الظاهرية بدمشق سنة (١٨٧٨) ودار الكتب المصرية في عهد محمد علي والمكتبة الازهرية والمكتبة الشرقية ببيروت وكذا مكتبة جامعة بيروت الامريكية.

كل ذلك جند للنهضة الحديثة رجالاتها وعلماءها ووفر الاساليب المختلفة لنشر الاداب والفنون والقيام بحركة قوية لاحياء التراث القديم والانفتاح على الغرب لترجمة كل جديد

فانعتقت العقول من قيودها وانتشر التعليم وبدأ الجهل ينحسر شيئا فشيئا ولذلك راح الرواد الاوائل ينهلون من معين المعرفة ويغترفون من بحر العلم الزاخر ما وسعهم الجهد فعادوا الى اساليب الفحول من الشعراء والادباء كالمتنبي والبحتري وابي تمام وغيرهم فقلدوهم واحتذوا حذوهم في النظم والتأليف وكان على رأس هذه الطبقة المقلده الشيخ ناصيف اليازجي.

ولم يمض وقت طويل حتى ظهر للشعراء ان عليهم ان يراعوا في اشعارهم الجانب الذاتي والجماعي على حد سواء ولذلك نراهم في هذه المرحلة يعالجون المشاكل والاحداث الاجتماعية حيث جددوا في الموضوعات والاخيلة ولكن بقي شعرهم ضمن دائرة الشعر القديم فهؤلاء اتخذوا موقفا وسطا بين التجديد من جانب والتقليد من جانب اخر وكان على رأس هذه الطبقة شوقي وحافظ والرصافي فقد وصف العقاد شوقي بأنه شاعر مقلد مبتكر في ان واحد ومع اشتداد اتصال الشرق بالغرب عن طريق البعثات الطلابية والارساليات التبشيرية وتعاظم دور المطابع والترجمة والتأليف وازدهار دور الصحافة الموجه والناقدة والناشرة لمختلف الاراء التحررية كل ذلك ادى بالشعراء والادباء الى الثورة على كل ما هو قديم والاقتداء بالغرب ولذلك وجد في الادب العربي في هذه الفترة من الشعراء والادباء من يمثل كل مذهب من المذاهب الادبية في الغرب بحيث بتنا نجد التيار الرومنسي والواقعي والرمزي ينتشر في الادب العربي بشكل عام.

وقد مثل التيار الرومنسي هذا خليل مطران والشابي وابراهيم ناجي وهم من جماعة ابولو وابو ريشة ونزار قباني وجبران خليل جبران.

اما الشاعر الياس قنصل فقد مثل التيار الواقعي في الادب العربي الحديث هذا في الوقت الذي من الممكن اعتبار الشعر العربي حتى العصر العباسي شعرا واقعيا كما انه يمكننا اعتبار ادب عصر النهضة في معظمه من الادب الواقعي لانه حرص على تصوير الواقع الذي يعيشه الانسان بكل ما فيه وقام بتفسيره وشرحه كما يحرص الشعر الواقعي على المعالجة الاجتماعية والاخلاقية وتصوير الطبيعة وهذا فعلا ما قام به الشعراء ابان عصر النهضة.

كما مثل الشاعر بشر فارس التيار الرمزي بالرغم من وجود بعض الشعراء الذي تأثروا جزئيا بهذا التيار منهم ايليا ابو ماضي ونزارقباني وسعيدعقل وأمين نخله.

كما كان البارودي واحمد شوقي وحافظ ابراهيم من زعماء المذهب الكلاسيكي في الشعر العربي الحديث.

وسنتناول في الفصول القادمة نماذج مختاره من شعر المحدثين والمعاصرين الذين يمثلون تيارات ومذاهب مختلفة تعكس لنا وجهة النهضة الشعرية الحديثة. ولكن قبل ذلك لا بد لنا من ايجاز لابرز ميزات الشعر الحديث.

ابرز خصائص وميزات الشعر الحديث

١ ـ تبلور شخصية الشاعر الحديث فلم يعد الشاعر يلهث وراء المديح او الرثاء الفردي والشخصي كما كان الحال في الماضي وانما وجد مكانه الصحيح بين تلك الجموع البشرية فيثيرها ويحفزها لتعمل على فك اغلالها وتحطيم قيودها التي قيدها بها المستعمر الاجنبي الدخيل او العادات والتقاليد البالية التي وصلت الى حد الخرافات المستحكمة والمتحكمة في عقول العامة فدعا الى التمرد على كافة العيوب الاجتماعية فالشاعر هنا يعيش حياة متطورة ودائمة الحركة بل ان الشعر في هذا العصر قد مهد الى الكثير من الثورات وادى بطريقة مباشرة او غير مباشرة الى العديد من الاصلاحات فساهم مساهمة مباشرة في حركة النهضة الحديثة في كافة البلاد العربية، ولذلك تبوأ الشاعر في هذا العصر مكانا مرموقا بين الشعب بعامته فقد اصبح الشاعر في مقدمة الثائري فهو اول من يحس الام الشعب ومصائبه ولذلك اصبح التخلي عن رسالته هذه يعتبر في نظره خيانة للشعب والحرية وللفن والفكر والعدالة ولكل القيم الانسانية النبيلة.

ولذلك اصبحت الشقة تتسع وتتعمق بين الشعر الحديث وبين الامور الفردية او الشخصية وبدأ يسيطر عليه الشعور الوطني والاحساس الجماعي فانصرف الشعراء عن الاشخاص الافراد الى المعاني الكبيرة الجامعة المشتركة وقد عبر الشعر عن كل تلك المعاني بشكل صريح وواضح لا لبس فيه دون خوف او وجل بل بتحد وصلابة فالحس الوطني حسن متطور في ارتفاع دائم وارتقاء نحو العلا فلا بكاء ولا حزن رغم السجن والعذاب.

يوم هبت عاصفات من جنود وحديد
يوم جاء الموج بالجرذان والغزو البليد
قام هذا الشعب يحمي الارض في عزم شديد

ان الناحية الوطنية هي ابرز ما ميز الشعر الحديث، فقد طغت عليه الى حد كبير ولعل هذا يعود الى شعورنا بوطأة الاستعمار ونهوضنا طلبا للحرية والاستقلال، وتشوقنا اليه كشوق الظامىء الى الماء.

فالوطنية اسبق الالوان في الشعر العربي الحديث وفي شعر النهضة عامة بل ان هذا الشعر قد تفاعل وتآزر مع الحركات الوطنية العالمية فحافظ ابراهيم ينتصر لليابان في حربها ضد روسيا القيصرية التي وقعت سنة ١٩٠٥ كما انتصر الشعر العربي الحديث لنضال الهند ضد الاستعمار البريطاني.

ومن أقوى مظاهر هذه الوطنية التي سيطرت على الشعر الحديث هو ما تمثل في شعر

النكبة انه الشعر الصادق الذي يرفض الاستسلام بل يرفع رأسه شامخا رغم الجوع والعطش انظر الى هذا الشعر وما يحويه من صمود وشمم الابطال:

كأننا عشرون مستحيل
في اللد والرملة والجليل
هنا على صدوركم باقون كالجدار
وفي حلوقكم
كقطعة الزجاج، كالصبار
وفي عيونكم
زوبعة من نـــار
هنا على صدوركم باقون كالجدار.(١)

٢ ـ وحدة الموضصوع وتحرر الشعر الحديث من سلطان القافية الموحدة فلم يعد البيت هو وحدة القصيدة كما كان الحال في الماضي بل تعدى الامر ذلك الى وحدة الديوان فهناك دواوين عدة تتمثل فيها وحدة الديوان مثل «سعاد» لزكي قنصل و «أنات حائرة» لعزيز اباظه وغيرهما من الدواوين ذات الموضوع الواحد.

ونتيجة لتحرر الشعراء في العصر الحديث من سلطان القافية وجد عندنا نوع من الشعر يسمي المقطعات او الموجات أو القافية المزدوجة او الشعر المطلق كما سماه ميخائيل نعيمة او الشعر الابيض كما سماه نجيب حداد كما وجد الشعر المرسل وهو من اقوى الاشكال الشعرية في الشعر الحديث وقد وثب الخيال بالشعر الحديث وثبة واسعة ومجنحة حتى اخذ الشعر الحر انماطا جديدة تمثلت بتعدد القوافي والاوزان في القصيدة الواحدة او باسقاط الوزن من القصيدة كلية مما عرض هذا الشعر لحملة شرسة وواسعة فانتقده النويهي وشوقي ضيف والعقاد الذي اطلق عليه اسم «الشعر السايب» فقد كتب عندما عرضت عليه عدة دواوين من الشعر الحر كتب عليها «تعرض على لجنة النثر».

٣ ـ شيوع الرمزية في الشعر الحديث وذلك لان الرمز يكون اقدر على الايحاء واعمق في الدلالة «فالشعر عند الرمزيين لا ينقل كثيرا من الاحداث، ولا يصف كثيرا من الاشياء ... بل واجبه ان يدعونا الى الاحلام المغلفة بالغيوم... ويذكرنا باحوال النفس الغامضة لا بالصور العقلية الكثيرة فالشعر الرمزي فيه الغموض والذاتية وأول من ادخلها الى الشعر العربي هو الشاعر أديب مظهر في قصيدته «النسيم الاسود» والواقع ان الرمزية هذه قد وجدت بعد ان شاع الشعر الصوفي الروحاني وبخاصة في الغزل.

---

(١) توفيق زياد، من قصيدته «على صدور مضطهدينا».

وقد جاءت الرمزية على انقاض الرومانسية التي قامت اثر سقـوط الكلاسيكية. ونتيجة للمغالاة والايغال عند شعراء الرمزية دخل الشعر الحديث الى ميدان السريالية وهي اشد غموضا وابهاما وتعقيدا من الرمزية بل انها تنبع من اللاوعي الانساني وهي نزعة فرضوية مضللة كان من ابرز شعرائها فؤاد كامل وكامل امي وكامل زهيري وغيرهم.

٤ ـ غزو العامية الشعبية للشعر الحديث: ذلك ان الشعر عندمها اصبح يعالج القضايا الاجتماعية والمسائل الوطنية اراد ان يكون له جمهوره العريض وسامعوه الكثر فالاحتلال والاستغلال لا بد للقضاء عليه من جهود جماعية ولا يتسنى تجميع تلك الجهود الا بواسطة اللغة الشعرية القريبة من عامة الناس والمفهومة عندهم.

لذلك كله كان نزول الشعـر الى ميدان الحياة العامة ليعالج مشاكلها نزولا موفقا لاستعماله الادوات المناسبة لذلك وعليه فقد كان الشعر الحديث اكثر عمقا من القديم فلم يعد هم الشعر او الشاعر هو الوصف الظاهري الشكلي بل نراه يتعمق في فهم الاسرار البعيدة والاسباب الكامنة وراء الظواهر فيضع الحل المناسب بعد ان يكون قد استقصى الاسباب البعيدة والقريبة على حد سواء كل ذلك بالفاظ شعبية لها ايحاءاتها النفسية وتاثيرها الكبير مما يجعل المستمع العادي يتفاعل معها تفاعلا طوعيا وداخليا دون اكراه ولذلك نرى هذا الشعر قد عالج وناقش العديد من موضوعات العصر كالبطالة والبيروقراطية وغيرها من العيوب الاجتماعية والاحوال السياسية والاقتصادية التي انتشرت في المجتمع الحديث واصبحت ملازمة له. واغلب الظن ان الشعر الحديث لم يكن لينجح في معالجة وتناول جميع هذه الجوانب بمثل هذه الفاعلية وقوة التأثير لو انه لم يستعمل لغته البسيطة التي جندت له ولقضاياه معظم ابناء الامة من العامة.

٥ ـ ظهور الشعر القصصي بحيث بدأ على شكل محاولات بسيطة عند خليل مطران واحمد محرم في «الالياذه الاسلامية» ثم بدأت هذه التجارب تنضج مع الزمن ومرور الوقت وتراكم التجارب حتى وضع احمد زكي ابو شادي قصيدتيه القصصيتين «الرؤيا وملكة ابليس»، وكان قد سبقه الى ذلك عبدالرحمن شكري في ديوانه «لالىء وافكار» بقصيدته «نابليون والساحر المصري».

كما ظـهرت بعض الملاحم الشعرية مثل ملحمة «الاطلال» لابراهيم ناجي وملحمة «الطلاسم» لايليا ابي ماضي.

وبقي الشعر الحديث يتطور على هذا النحو حتى ظهر الشعر التمثيلي على يد امير الشعراء احمد شوقي الذي وضع سبع تمثيليات واحدة ملهاة هي «الست هدى» والباقية مأساة هي «عنترة»، قمبيز، مجنون ليلى، اميرة الاندلس، علي بك الكبير، مصرع كليوبترا».

هذا بالرغم من عدم التزام شوقي في مسرحياته بوحدة الموضوع والزمان والمكان والتزامه لغة الشعر باستثناء ملهاته وقد مهد شوقي الطريق لعزيز اباظة الذي استمد مسرحياته

من التاريخ واشهرها «شجرة الدر» قيس ولبنى العباسية، الناصر، غروب الاندلس، اوراق الخريف».

٦ ـ ظهور انواع جديدة للشعر الحديث كالشعر الفلسفي التأملي الذي ظهر بتأثير علم النفس، وكذلك ظهور الشعر المهجري وشعر الطبيعة التي احتفل بها الشعر الحديث طويلا فكانت ملاذ الشعراء ينفذون الى اسرارها ويحاولون فهم كنهها ويمزجون بينها وبين الانسان.

الى غير ذلك من الخصائص والمميزات التي تميز بها الشعر الحديث نتيجة اتصاله المباشر بالنهضة الاوروبية الحديثة وشيوع الترجمة والتأليف مما جعل الشعر العربي يتأثر بالغرب في الفاظه ومعانيه واساليب نظمه وموضوعاته.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الاول

محمود سامي البارودي

«طيف سميرة»

محمود سامي البارودي (١٨٣٨ - ١٩٠٤م)

حياتـــه:

هو محمود سامي البارودي نسبة الى «ايتاي البارود» من مديرية البحيرة، ينتهي نسبه الى اسرة جركسية ذات حسب ونسب وجاه قديم، تنتسب الى حكام مصر المماليك.

ولد بالقاهرة وتلقى علومه الاولى من عمره في بيت اسرته ثم التحق بالمدرسة الحربية وتخرج منها سنة ١٨٥٤ في عهد الخديوي عباس الاول ولما لم يجد عملا في الجيش يثبت من خلاله شجاعته وفروسيته عكف على دراسة الادب والشعر القديم رغم معارضة ابناء طبقته الذين عابوه على ذلك ولكنه استمر في قول الشعر حتى ملك ناصية القول واصبح من فرسان الشعر والبيان ثم نراه يرحل الى الباب العالي بالاستانة ويلتحق هناك بوزارة الخارجية ويتقن من خلال اقامته هناك اللغة الفارسية والتركية ويقول فيهما شعرا وفي سنة ١٨٦٣م الحقه الخديوي اسماعيل بحاشيته وظل هذا يرتقي في المناصب حتى وصل الى رتبة قائمقام حيث اشترك في اخماد ثورة جزيرة كريت التي قامت ضد الخديوي.

وقد تقلب البارودي في مناصب عدة حتى وصل الى رتبة كاتم سر الخديوي ومستشاره الامين الامر الذي جعله يرافق الجيش الذي بعثه الخديوي لمعاونة الخليفة ضد روسيا التي اعلنت الحرب على تركيا سنة ١٨٧٧ وبعد عودته انعم عليه الخديوي برتبة لواء كما اشترك في حرب البلقان وعين بعدها مديرا للشرقية ثم محافظا للعاصمة ثم تولى وزارة الحربية والاوقاف بعد عزل عثمان رفقي وبقي هكذا ينتقل من منصب الى آخر حتى وصل الى رئاسة الوزارة في عهد الخديوي توفيق وفي هذه الاونة ثار الجيش بقيادة عرابي سنة ١٨٨١ وطالب بعزل الخديوي توفيق، ووقف البارودي الى جانب الثائرين غير انه رأى وبحكم معرفته السياسية ان الثورة سائرة نحو الهزيمة لتدخل انجلترا وفرنسا لصالح الخديوي عندها حاول ان ينصح لعرابي واخوانه ولكن بعد فوات الاوان حيث اخفقت الثورة ونفي البارودي مع زعماء الثورة ا لى جزيرة «سرنديب» «سيلان» وبقي فيها منفيا سبعة عشر عاما نظم فيها روائع اشعاره وسكب من خلالها اصدق عواطفه واحاسيسه من الشكوى الى الحنين، الى الوصف الى رثاء الاعزاء، وفي المنفى غزا جسمه المرض والعلل وكف بصره وخارت عزيمته وفقد زوجته وابنته واعز اصحابه واخيرا يعود من منفاه الى مصر سنة ١٩٠٠ وهو كما وصف «اشلاء همة في ثياب» ولم يطل به المقام حتى فاضت روحه الى بارئها سنة ١٩٠٤ بعد ان استقبلته مصر من منفاه ورأت في عودته عودة الادب الرفيع والشعر الاصيل.

صفاته واخلاقه:

يوصف البارودي بأنه كان فارع الطول، حنطي اللون، وكان مظهره يوحي اليك انك امام فارس من الفرسان القدماء فارس سيف وحرب وفارس قلم وخطابة وتلك هي الصورة التي رسمها لنفسه بقوله:

انا فارس انا شاعر في كل ملحمة وناد
فاذا ركبت فانني زيد الفوارس في الجلاد
واذا نطقت فانني قس بن ساعدة الايادى[1]

كان البارودي معتزا بحسبه ونسبه وصفاته وكثيرا ما كان يعبر عن هذا الاعتزاز في اشعاره، وقد كان في صباه شابا متوثب العزيمة قوي الشكيمة معتدا بنفسه يلوى على لهو او ترف ولكن ما ان اشتهر وعلا شأنه وذاع صيته وكثر ماله حتى مال الى اللهو ومجالس الانس والحسان دون ان يتنازل عن كبريائه واخلاقه وامجاده، انظر اليه يقول:

اذا انا لم اعط المكارم حقها فلا عزني خال ولا ضمني اب
خلقت عيوفا لا ارى لابن حرة علي يدا اغضى لها حين يغضب

شعره وشاعريته:

تعددت مصادر ثقافة البارودي مما جعل الكثيرين يحسبونه فلتة من فلتات عصره وصاحب مدرسة شعرية مستقلة لها اسسها وميزاتها واليك ايجازا عن هذه المصادر التي استقى منها الشاعر ثقافته واهلته ليقف على رأس شعراء العصر وكان لها من الاثر على شعره وشاعريته وقع كبير:

١ ـ اسرته:

فقد ولد البارودي في بيت ثراء ونعمة فأبوه حسن البارودي كان من امراء المدفعية ثم مديرا لناحية بربر ودنقله وقد انعكس ذلك على أدبه، كما أنه ينتمي الى عائلة من الطبقة الحاكمة وهي طبقة الجراكسة التي كانت تحكم مصر مع طبقة الاتراك وقد وفرت له هذه الاسرة وهذه الطبقة التي ينتمي اليها فرصة الدراسة والعمل والنجاح فدرس في المدرسة

---

(١) خطيب العرب وشاعرها دون منافس، يضرب به المثل في الفصاحة وهو اول من استعمل «أما بعد...» في خطبه.

الحربية وتخرج منها وسافر الى فرنسا وانجلترا ودرس نظام جيشيهما وعاد ليتولى قيادة كتيبة الفرسان، فهو يشبه من هذه الناحية شوقي الذي كان ينتمي ايضا الى مثل اسرة البارودي.

٢ ـ بلاط الخديوي:

فقد عمل مع الخديوي عباس واسماعيل وتوفيق وكان من المقربين والمستشارين لهم وهذا ما جعله اعرف الناس بما يدور في بلاط الخديوي من سياسات وما يدبر لمصر وشعبها ولذلك نراه يقف الى جانب الشعب ويختار الثورة العرابية وكل ذلك بدافع وطني وان كان يلبي رغبة الطموح الكامنة في اعماقه وهذا ما جعله يهتم بوطنه وما يحيكه الاجنبي من مكائد وما يدبره من مؤامرات وما يغرق فيه المواطن من جهل وتأخر في مختلف النواحي.

٣ ـ مطالعاته الخاصة وجهوده الذاتية:

فقد ملك البارودي موهبة نادرة وعبقرية فذة، وحبا للأدب واهله ما جعله يقبل عليه اقبالا وينكب عليه انكبابا حتى ترى اثر الحفظ والقرأة في شعره واضحة للعيان في معارضاته الكثيرة والفاظه ومعانيه وأساليبه التي قلد بها الاقدمين من كبار الشعراء.

وقد ترافقت هذه المطالعات والجهود الذاتية عنده بملكة شعرية لم تقتصر على الادب العربي فقط وانما اشتملت على الاداب الاجنبية من فارسية وتركية اضف الى ذلك ملازمته للشيخ حسين المرصفي وعناية هذا الاخير به والاخذ بيده وتشجيعه بالاضافة الى ما افاده البارودي من مدرسة جمال الدين الافغاني وكتاباته وآرائه ودروسه في الدعوة الى التحرر والانعتاق من قيود الجهل والعبودية والاستعمار.

٤ ـ النفـــي:

فقد بينا ان نفيه قد طال زمنا جعل الشاعر يذوب شوقا وحنينا ويمتلىء شكوى ومرارة وقد صب كل ذلك في قالب شعري تميز بالصدق والواقعية.

٥ ـ احداث عصره السياسية:

فقد وجد البارودي في عصر بدأت فيه مصر تنفض عنها غبار الماضي بكل ما يشتمل عليه من جهل وتخلف، كما عاصر الدسائس والمؤامرات التي حاكهخا المستعمر ضد ابناء شعبه، كما انه كان من المشاركين في احداث العصر بل ومن الصانعين لتلك الاحداث فقد شارك في حروب البلقان وفي ثورة عرابي وذاق النفي والتشريد والغربة.

تفتحت عيون البارودي على صحوة الشعب وقد أخذ باسباب التقدم والحرية وبدأ بتحطيم اغـلال الظلم ومقاومته حيث انتشر التعليم ووجدت المطابع وكثرت الترجمات عن

الغرب وانتشرت حلقات الدرس والعلم والادب والشعر وقد عكف البارودي بعبقريته الفذة على كل تلك المظاهر واستفاد منها ما وسعه الامر فاذا اضفنا الى كل ما ذكر نزعة الفروسية التي قويت بالدراسة في المدرسة الحربية وبالوظائف التي تقلدها امكننا الوقوف على مكونات تلك الشاعرية النادرة التي تميز بها البارودي ما جعل العقاد يقول فيه:

«وله ميزة واضحة لا نظير لها في تاريخ الادب المصري الحديث وتلك انه وثب بالعبارة الشعرية وثبة واحدة من طريق الضعف والركاكة الى طريق الصحة والمتانة.... فاذا ارسلت طرفك خمسمائة سنة وراء عصر البارودي لم تكد تنظر الى قمة واحدة تساميه او تدانيه».

والحق ان البارودي خلف لنا مدرسة شعرية ومذهبا شعريا متميزا له اسسه وقواعده يحسن بنا ان نوجز الحديث عنها على النحو التالي:

١ ـ من ابرز خصائص مدرسة البارودي الشعرية ومذهبه هو عنايته الفائقة بالديباجة الشعرية على غرار الشعراء الفحول في ازهى العصور العباسية وقد استطاع ان يصل الى ذلك بعبارته القوية والفاظه الجزله وتراكيبه المتينة وصوره الدقيقة وتشبيهاته الرائعة واستعاراته الجميلة والروح البدوية التي يشيعها بين الحين والاخر حتى ليخيل اليك انك امام شاعر جاهلي.

٢ ـ توليد المعاني والاسترسال في الصورة الشعرية خاصة في معارضته لفحول الشعراء فهو يطيل الصورة الاصلية ويضيف اليها ويلونها وهذا ما يجعله كأبي تمام في هذه الناحية

٣ ـ جمع في شعره بين التقليد والتجديد فالشعر في نظره ليس الا مرآة للعصر وعليه فيجب على الشعر ان يتناول احداث وقضايا العصر ويعالجها ويناقشها فخير الكلام عنده هو «.... ما ائتلفت الفاظه وائتلفت معانيه وكان قريب المأخذ بعيد المرمى سليما من وصمة التكلف... ولو لم يكن من حسان الشعر الحكيم الا تهذيب النفوس وتدريب الافهام وتنبيه الخواطر الى مكارم الاخلاق لكان قد بلغ الغاية التي ليس وراءها...»[1]

ولذلك نراه يقلد الاقدمين في الوقوف على الاطلال وفي النسيب وفي ذكر البرق والسحب وفي المعاني وغيرها في حين نراه مجددا في شعره السياسي الوطني الذي دفع به الى النفي وكذا في حديثه عن الامراض الاجتماعية والفساد الاجتماعي والمؤامرات والدسائس وارهاق الشعوب... الخ.

كما جدد في الهجاء الاجتماعي وغير ذلك من الاغراض وعليه فانه يمكن القول ان البارودي بدأ مقلدا ثم استقلت شخصيته وانتهى مجددا.

---

(١) مقدمة ديوانه.

٤ ـ بالرغم من اعلاء البارودي لشأن الطبع في الشعر الا انه كان يرى ان الطبع لوحده لا يكفي بل لا بد من اعادة النظر في شعره ولذلك كان كثيرا ما يختف بشعره قبل ان ينشره كما انه كان كثيرا ما يعيد النظر في شعره.

وبالاجمال فان ابرز ما ميز مدرسة البارودي الرصانة وقوة الاسلوب وسلامة القافية. والاحتفال بالنغم والموسيقى والعناية باللفظ مع وضوح الصورة وجودة التشبيه. وهكذا كان شعر البارودي في مجمله قديم النفحة واللهجة، جديد الفحوى يصور شخصية صاحبه وما اشتملت عليه من احداث وهذا ما جعل هيكل يقول عنه «ان شعر البارودي كان في عصره جديدا كله كانت محاكاته للاقدمين جديدة وكانت معارضته اياهم جديدة...»

آثـــاره:

ترك لنا االبارودي الكثير من الآثار والتي كان من اهمهما:ـ

١ ـ ديوانه الذي عكف على تنقيحه وشرح غريبه بنفسة ثم قامت زوجته بطباعته بعد وفاته.

٢ ـ مختارات من عيون الشعر العباسي: وهذه اختارها لثلاثين شاعرا من فحول العصر العباسي امثال بشار وابو تمام والمتنبي والبحتري وابو نواس وغيرهم، من الفحول وقد شرحها البارودي ولكن زوجته قامت بطباعتها بعد وفاته.

٣ ـ قيد الاوابد: وهي مجموعة من عيون الرسائل والخطب والتوقيعات غير ان هذه المجموعة لم تصلنا بعد.

٤ ـ مجموعة من الرسائل النثرية من مثل وصف رحلته الى المنفى وكذلك مقدمة ديوانه ويغلب عليها طابع السجع والتكلف.

المناسبة:

شبت الثورة العرابية سنة ١٨٨١م وكان البارودي أحد أبرز زعمائها، وقد انتهت هذه الثورة كما علمنا بتدخل الانجليز واحتلالهم للاسكندرية سنة ١٨٨٢م وتم القبض على زعماء الثورة اثر موقعة (التل الكبير) ونفي معظمهم الى جزيرة (سرنديب) احدى المستعمرات البريطانية آنذاك، وقد ظل الشاعر منفيا مدة سبعة عشر عاما وهَنَ فيها جسمه، وكف بصره، وخارت قواه وأصبح كما وصف نفسه (أشلاء همة في ثياب) وكان خلال هذه السنون كثير التحنان الى مصر وشعبها وذكرياتها دائم التطلع الى الحرية.

وبعد وصوله الى (سرنديب) رأى في منامه ابنته الوسطى (سميرة)[1] فهاجه الشوق الى مصر وأرق نومه وأحيى الذكرى في نفسه، واستبد به الحنين، وتذكر أيامه الحلوة، ومصارعته للرجال وأحداث الزمان حيث كان له في مصر اعداء كثر اتهموه بالتآمر لخلع الخديوي

(١) تجدر الاشارة الى ان ابنته الوسطى هذه توفيت سنة (١٩٥٣م)

توفيق في سبيل اطالة مدة نفيه فأخذ يبرر ثورته ويذكر من اسبابها ما كان ينتشر في مصر من الظلم والاستبداد والنفاق، فنراه يحمل بشدة على هؤلاء الواشين والمنافقين الذين باعوا أوطانهم من أجل شهواتهم.

في القصيدة شكوى من الخونة الذين اندسوا في صفوف الثورة ثم وشوا بالثوار مع أنهم اقسموا الايمان المغلظة على السير مع الثورة حتى النهاية وبالرغم من علمهم بما كان يقاسيه ابناء الشعب المصري من استبداد الحكام وعسفهم، فنراه دائم الشكوى من هؤلاء المنافقين النفعيين.

وفي القصيدة وصف لطيف «سميرة» وما كانت فيه من تنعّم وما تعودته من خفض ودعه وفيها ايضا ذكرى وأمل، وشوق وحنين وشكوى، وحكمة من الدنيا وما فيها من تقلب وخداع وزخارف باطلة ولذلك نراه يدعو الى وجوب الاحتراس والحذر منها والى الاعتصام بالصبر وترقب الفرج من الله تعالى، وقد تطرق فيها الى الفخر بصفاته وجَلَده وشجاعته وما يتميز به من خلق رفيع وحكمة وأدب جم مع التعريض بأعدائه الذين نقضوا العهود والمواثيق وأن حسدهم له ووشايتهم به لم يكن الا لعلو مكانته وكريم صفاته.

«طـيـف سمـيرة»

وَقَالَ بَعْدَ وُصُولِه إِلَى جَزِيرَةِ «سَرِنْدِيبَ» وَقَدْ رَاى ابْنَتَهُ الوُسطَى في الْمَنَام:

١ـ تَاوَّبَ طَيْفُ مِنْ «سَمِيَرَة» زَائِرُ ... وَمَا الطَيْفُ إِلَّا مَا تُرِيه الخْوَاطِرُ[١]

٢ـ طَوَى سُدْفَةَ الظَلمَاء، وَاللَيلُ ضارِبُ ... بِارْوَاقِه، والنَجمُ بِالأفْقِ حَائِرُ[٢]

٣ـ فَيَالَكَ مِنْ طَيفٍ أَلَمَّ وَدُونَهُ ... مُحِيطُ مِنَ البَحْرِ الجَنُوبِيِّ زَاخِرُ[٣]

٤ـ تَخَطَّى إِلَىَّ الأرْضَ وجَداً، وَمَا لَهُ ... سِوَى نَزَوَاتِ الشَوْقِ حَادٍ وزَاجِرُ[٤]

٥ـ أَلَمَّ، وَلَمْ يَلْبَثْ، وَسَارَ، وَلَيْتَهُ ... أقَامَ، وَلَوْ طَالَتْ عَلَىَّ الدَيَاجِرُ[٥]

الشرح اللغوي

(١) تأوبه: أتاه ليلا. والطيف: الخيال الطائف في المنام. وسميرة: ابنة الشاعر. والخواطر: الهواجس التي تخطر ببال الانسان، وتقع في خلده، وكل ما يتحرك في القلب من رأي أو معنى.

يقول انه رأى ابنته سميرة في الحلم، وما الاخيلة التي يراها النائم الا صور تظهرها خواطر القلب. والمعنى ان الانسان لا يحلم الا بشيء اضطرب في باله، وشغل قلبه.

(٢) السدفة (بالضم): السترة (بضم فسكون)، وهي ما يستر به الشيء، اي يغطي ويحجب، ومثلها الستر (بكسر فسكون) والستارة (بكسر السين). وسدفة الظلماء: الظلماء الشبيهة بالسدفة. وطواها: سلكها وقطعها وسار فيها. والارواق: جمع روق (بفتح فسكون)، وهو الستر (بكسر فسكون)، ومقدم البيت، والفسطاط. وضرب الليل أرواقه كناية عن الاستقرار والتمكن. وكنى بحيرة النجم في الافق عن شدة الحلكة (بضم فسكون)، وتراكم الظلمات، حتى كأنه لا يهتدي الى طريق.

(٣) يالك: يا عجبا لك. وألم: نزل. ويريد بالبحر الجنوبي: المحيط الهندي. وزاخر: طام ممتلىء، واسع عظيم ممتد.

يعجب من المام الطيف به وبينه وبين ابنته بحار واسعة زاخرة عظيمة.

(٤) تخطى الارض: سلكها وتجاوزها وقطعها. ووجدا: حبا، وهو مفعول لاجله، اي تخطى بسبب الوجد. والنزوات: والوثبات، جمع نزوة، وهي اسم مرة من نزا (من باب عدا) نزوا

(بفتح فسكون)، والمراد بنزوات الشوق: نوازعه وحرقه. وحاد: اسم فاعل من الحذو (بفتح فسكون) وهو سوق الابل، وحثها على السير بالغناء لها وزاجر: اسم فاعل من زجر الرجل البعير زجرا (من باب نصر) اي ساقه.

يقول ان الطيف تخطى اليه الارض وجدا، ولم يكن له من دوافع سوى لواعج الشوق.

(٥) ألم به: حل ونزل. ولم يلبث. لم يمكث. والدياجر: جمع ديجور (بفتح فسكون فضم) وهو الظلام.

يقول: إن طيف ابنته نزل به، ولكنه ارتحل ولم يلبث، ويتمنى لو أنه أقام الليل كله ولو طالت عليه ظلماته، حتى يستمتع قلبه، وتشتفي نفسه بهذا الطيف العزيز.

٦- تَحَمَّلَ اهْوَالَ الظَلَامِ مُخَاطِراً وَعَهْدِي بِمَنْ جَادَتْ بِهِ لا تُخَاطِرُ(١)

٧- خُمَاسِيَّةُ، لَمْ تَدْرِ مَا اللَّيْلُ والسُّرَى وَلَمْ تَنْحَسِرْ عَنْ صَفْحَتَيهَا السَتَائِرُ(٢)

٨- عَقِيلَةُ اتْرَابٍ تَوَالَيْنَ حَوْلَهَا كَمَا دَارَ بِالْبَدْرِ النُّجُومُ الزَّوَاهِرُ(٣)

٩- غَوَافِلُ لَا يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ وَلَا هُنَّ بِالخُطَبِ الْمُلِّمِ شَوَاعِرُ(٤)

١٠- تَعَوَّدْنَ خَفْضَ العَيْشِ فِي ظِلِ وَالِدٍ رَحِيمٍ، وَبَيْتٍ شَيَّدَتْهُ العَنَاصِرُ(٥)

١١- فَهُنَّ كَعُنْقُود الثُّرَيا، تَأَلَّقَتْ كَوَاكِبُه فِي الْأُفْقِ، فَهْيَ سَوَافِرُ(٦)

الشرح اللغوي

(١) أهوال الظلام: مخاوفه واخطاره. ومخاطرا: معرضا نفسه للخطر والهلاك، وهو اسم فاعل من خاطر الرجل بنفسه، اي اشفاها على خطر هلك (بضم فسكون)، وفعل ما يكون الخوف فيه اغلب. والعهد هنا: المعرفة.

يقول ان طيف ابنته خاطر بنفسه، واحتمل في رحلته الى مخاوف الظلام، والذي اعرفه ان صاحبة الطيف لا تقوى على المخاطرة. ويشير بالشطر الثاني الى صغر سنها وطفولتها.

(٢) خماسية: طولها خمسة اشبار، والمراد انها طفلة صغيرة السن. والسري: السير ليلا. ولم تنحسر: لم تنكشف وصفحتاها: جانبا وجهها. والستائر، جمع ستارة (بكسر السين). والشطر الثاني كناية عن تنعمها وصونها.

(٣) العقيلة: كريمة الحي، وعقيلة كل شيء: اكرمه. والاتراب. جمع ترب (بكسر فسكون) وهو اللدة، اي من ولد معك، وكانت سنة مثل سنك، يقال: هو تربه، وهي تربها، اي مثلها في السن. والنجوم الزواهر: المتلألئة المشرفة الجميلة، جمع زاهر.

(٤) غوافل: جمع غافلة، وبقية البيت تفسير لها. وبؤس المعيشة: شدة الحياة وضرها. والخطب: النازلة الشديدة من نوازل الدهر والملم: اسم فاعل من الم بنا فلان، اي حل بنا ونزل. وشواعر: جمع شاعرة.

(٥) خفض العيش: دعة الحياة وسعة المعيشة وراحتها. وشيدته، رفعته واعلت قدره. والعناصر: المناقب والمفاخر والاصول الكريمة، واحدها عنصر (بضم فسكون فضم)، او (بضم فسكون ففتح) وهو الاصل والحسب.

(٦) الثريا: من الكواكب، سميت بذلك لكثرة كواكبها مع صغر مرآتها، ويقال ان خلال انجمها الظاهرة كواكب خفية كثيرة العدد، والعرب تشبه الثريا بعنقود العنب ونحوه، قال الشاعر.

وقد لاح في الصبح الثريا لمن راى كعنقود ملاحية حين نوّرا

وتألقت: لمعت وتلألأت. وسوافر: مضيئة مشرقة، جمع سافر.

١٢- تُمَثِّلُهَا الذِّكْرَى لِعَيْنِي ، كَأَنَّنِي ... إِلَيْهَا عَلَى بُعْدٍ مِنَ الْأَرْضِ نَاظِرُ[١]

١٣- فَطَوْراً إِخَالُ الظَّنَّ حَقّاً، وتَارَةً ... أَهِيمُ، فَتَغْشَى مُقْلَتَيَّ السَّمَادِرُ[٢]

١٤- فَيَا بُعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبَّتِي! ... وَيَا قُرْبَ مَا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الضَّمائِرُ![٣]

١٥- وَلَوْلاَ أَمَانِي النَّفْسِ وَهْيَ حَيَاتُهَا ... لَمَا طَارَ لِي فَوْقَ الْبَسِيطَةِ طَائِرُ[٤]

١٦- فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنَا ... فَكُلُّ امْرِىءٍ يَوْمًا إِلَى اللهِ صَائِرُ[٥]

١٧- هيَ الدَّارُ، مَا الْأَنفَاسُ إِلَّا نَهَائِبُ ... لَدَيْهَا، وَمَا الْأَجْسَامُ إِلَّا عَقَائِرُ[٦]

١٨- إِذَا أَحْسَنَتْ يَوْماً أَسَاءَتْ ضُحَى غَدٍ ... فَإِحْسَانُهَا سَيْفٌ عَلَى النَّاسِ جَائِرُ[٧]

الشرح اللغوي

(١) الذكرى: ضد النسيان، وهي اسم من ذكرته الشيء تذكيرا.

والمعنى انه شديد التعلق بأبنته، عظيم التذكر لها، حتى إن الذكرى تصور لعينيه مثالها، فكأنما يراها عيانا على بعد ما بينهما من الارض.

(٢) إخال: (بكسر الهمزة على غير قياس): أظن وأحسب، مضارع خلت الشيء كذا، أي حسبته وظننته، (وبابه نال)، وبنو أسد يفتحون همزة المضارع، وهو القياس. وأهيم: أتحير. وتغشى مقلتي: تصيب عيني. والسمادر: جمع سمدور (كعصفور) وهو غشاوة العين، وضعف البصر.

(٣) يريد بما التفت عليه الضمائر: ما تكنه النفوس من الود والشوق والمحبة ونحوها.

(٤) الاماني: جمع امنية، وهي ما يتمناه الانسان، ويتوق اليه، ويرجو حصوله.

ومعنى البيت: أن الانسان يحيا بالاماني والامال، يكافح بها الخطوب والاهوال، ولولا ذلك لاهلكه اليأس، وارداه القنوط.

(٥) هذا البيت لمتمم بن نويره في رثاء أخيه مالك:

فان تكن الايام فرقن بيننا ... فقد بان محمودا أخي حين ودعا

(٦) يريد بالدار: الحياة الدنيا. والانفاس: جمع نفس (بفتحتين)، وهو مظهر الحياة. ونهائب: مغانم، كأنها جمع نهيبة (بفتح فكسر)، ولم نجدها فيما بين أيدينا من المعجمات، ولكن بعض الصرفيين يرى جواز صوغ فعيل بمعنى مفعول من الفعل الثلاثي قياسا. وعقائر: معقورات، من قولهم عقرت البعير ونحوه، اذا قطعت احدى قوائمه، ثم نحرته.

(٧) جائر: ظالم. يشير الى سرعة تقلب الدنيا، والى أن احسانها مقدمة الى الاساءة والغدر.

١٩ـ تَرَبُّ الفَتَى، حَتَّى إِذَا تَمَّ أَمْرُهُ ... دَهَتْهُ، كَمَا رَبُّ الْبَهِيمَةَ جَازِرُ[١]

٢٠ـ لَهَا تِرَةٌ فِي كُلِّ حَيٍّ، وَمَالَهَا ... عَلَى طُولِ مَا تَجْنِي عَلَى الْخَلْقِ وَاتِرُ[٢]

٢١ـ كَثِيرَةُ أَلْوَانِ الْوِدَادِ، مَلِيئَةٌ ... بِأَنْ يَتَوَقَّاهَا الْقَرِينُ الْمُعَاشِرُ[٣]

٢٢ـ فَمَنْ نَظَرَ الدُّنْيَا بِحُكْمِهِ نَاقِدٍ ... دَرَى أَنَّهَا بَيْنَ الْأَنَامِ تُقَامِرُ[٤]

٢٣ـ صَبَرْتُ عَلَى كُرْهٍ لَمَا قَدْ أَصَابَنِي ... وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَنْدُوحَةً فَهْوَ صَابِرُ[٥]

٢٤ـ وَمَا الْحِلْمُ عِنْدَ الْخَطْبِ وَالْمَرْءُ عَاجِزٌ ... بِمُسْتَحْسَنٍ كَالْحِلْمِ وَالْمَرْءُ قَادِرُ[٦]

الشرح اللغوي

(١) تربه: تربية، ()وبابه رد). ودهته: اصابته بداهية، وهي الامر العظيم. وجازر: صفة من جزرت البهيمة (من باب نصر) اي نحرتها وذبحتها.

(٢) الترة: الذحل والثأر (بفتح فسكون فيهما)، وهي ايضا مصدر وترة (من باب وعد) أي أدركه بمكروه. والمعنى أن الدنيا تجني على كل حي، كأن لها عنده ثأرا، ولا يستطيع ان يقتص منها.

(٣) ملية: جديرة خليقة، ولعلها من قولهم: ملؤ الرجل (من باب ظرف) بمعنى صار مليئا، اي ثقة، وقد أولع الناس فيه بترك الهمز، وتشديد الياء. والقرين: الصاحب.
يشير الى خداع الدنيا وزخرفها، ووجوب التوقي والاحتراس منها.

(٤) الأنام: الخلق (بفتح فسكون) وتقامر: تخادع.
يقول؛ إنّ من نظر الى الدنيا نظرة الحكيم الفيلسوف الناقد الخبير عرف انها مخادعة مخاتلة.

(٥) الكره (بفتح الكاف): اسم من الاكراه بمعنى القهر والغلبة. والكره (بالضم): المشقة والكراهية، وقيل هما لغتان بمعنى واحد. والمندوحة: السعة.
والمعنى انه صبر على ما اصابه صبر المضطر المغلوب على امره، واحتمل العنت والمشقة لانه لم يسعه غير الصبر.

(٦) الحلم: الأناة والصبر. والخطب: النازلة الشديدة من نوازل الدهر.
يشير الى فضل الحلم عند المقدرة، وشرف قدره، وعظم شأنه ويأسف أن حلمه حلم العاجز المضطر.

٢٥- ولَكَنْ إذَا قَلَّ النَّصِيرُ، وَأَعْوَزَتْ ... دَوَاعِي الْمُنَى - فَالصَّبْرُ فيهِ المَعَاذِرُ[١]

٢٦- فَلَا يَشْمَتَ الْأَعْدَاءُ بي، فَلَرُبَّمَا ... وَصَلْتُ لِما أَرجُوهُ ممَّا أُحَاذِرُ[٢]

٢٧- فَقَدْ يَسْتَقِيمُ الأَمْرُ بَعْدَ اعْوِجَاجِه ... وَتَنْهَضُ بِالْمَرءِ الْجُدُودُ الْعَوَاثِرُ[٣]

٢٨- وَلِي أَمَلٌ فِي اللهِ تَحْيَا بِهِ الْمُنَى ... وَيُشْرِقُ وَجْهُ الظَّنِّ والخَطْبُ كَاشِرُ[٤]

٢٩- وَطِيدٌ، يَزِلُّ الْكَيْدُ عَنْهُ، وَتَنْقَضِي ... مُجَاهَدَةُ الْأَيَّامِ وَهْوَ مُثَابِرُ[٥]

٣٠- إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَرْكَنْ إِلَى اللهِ فِي الَّذِي ... يُحَاذِرُهُ مِنْ دَهْرِهِ فَهْوَ خَاسِرُ[٦]

٣١- وَإِنْ هو لَمْ يَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَهُ ... فَلَيْسَ لَهُ فِي مَعْرِضِ الحَقِّ نَاصِرُ[٧]

الشرح اللغوي

(١) أعوزه الشيء: احتاج اليه فلم يقدر عليه. والمنى: جمع منية (بضم فسكون) وهي ما يتمناه الانسان ويتوق اليه. والمعاذر: جمع معذرة، وهي العذر.

والمعنى ان الانسان اذا لم يجد من يعاونه وينا صره، وأعوزته الوسائل المحققة لآماله، ولم تواته اسباب النجاح كان معذورا اذا استسلم للصبر، وكأن الشاعر يعتذر بهذا عما أشار اليه في البيت السابق.

(٢) احاذره: اخافه واكرهه. ومعنى الشطر الثاني انه قد يكون ما يخافه الآن ويحذره وسيلة وطريقا الى بلوغ غايته.

(٣) الجدود: جمع جد (بفتح الجيم) وهو الحظ والبخت. والعواثر: جمع عاثر، اسم فاعل من عثر (من باب نصر) بمعنى زل وسقط.

(٤) المنى: الاماني والامال. وكاشر: اسم فاعل من كشر الاسد ونحوه عن انيابه، وذلك عند الغضب، والمراد شديد فادح.

يقول ان امله في لطف الله تعالى ومعونته ونصرته يحيي امانيه ومطالب نفسه، ويجعل ظنه مشرقا زاهرا، على الرغم من شدة الخطوب، وعظم الفوادح.

(٥) وطيد: ثابت راسخ، وهو صفة لامل في البيت السابق. ويزل: يسقط. ومثابر: مواظف، والمراد باق على قوته.

(٦) هذا من ابيات الحكمة التي استفادها الشاعر من حياته فالحياة يجب الا يطمئن اليها الانسان.

(٧) المعرض (وزان مسجد): موضع عرض الشيء، اي ذكره واظهاره، وقلته في معرض كذا، اي في موضع ظهوره والقصد اليه، وقد يكون المعرض اسم زمان.

٣٢- وَمَنْ لَمْ يَذُقْ حُلْوَ الزَّمَانِ وَمُرَّهُ ... فَمَا هُوَ إِلَّا طَائِشُ اللُّبِّ نَافِرُ(١)

٣٣- وَلَوْلَا تَكَالِيفُ السِيَادَةِ لَمْ يَخِبْ ... جَبَانٌ، وَلَمْ يَحْوِ الْفَضِيلَةَ ثَائِرُ(٢)

٣٤- تَقَلُّ دَوَاعِي النَّفْسِ وَهْيَ ضَعِيفَةٌ ... وَتَقْوَى هُمُومُ الْقَلْبِ وَهْوَ مُغَامِرُ(٣)

٣٥- وَكَيْفَ يَبِينُ الْفَضْلُ وَالنَّقْصُ فِي الْوَرَى ... إِذَا لَمْ تَكُنْ سَوْمَ الرِجَالِ الْمَآثِرُ(٤)

٣٦- وَمَا حَمَلَ السَّيْفَ الْكَمِيُّ لِزِينَةٍ ... وَلَكِنْ لِأَمْرٍ أَوْجَبَتْهُ الْمَفَاخِرُ(٥)

٣٧- إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْمَعِيشَةَ مَطْلَبُ ... فَكُلُّ زَهِيدٍ يُمْسِكُ النَّفْسَ جَابِرُ(٦)

الشرح اللغوى

(١) طائش: صفة من الطيش، وهو الخفة والنزق. واللب: العقل. ونافر: جزع شارد متباعد، والمراد غر جاهل.

(٢) يريد بالثائر: الوثاب الشجاع.

والمعنى ان السيادة تتطلب ركوب الاخطار، والاقدام على المهالك، وغير هذا من المشقات والصعاب، ولولا ذلك ما خاب جبان، ولا حاز الفضيلة شجاع، وهذا المعنى قريب من معنى قول المتنبي.

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر، والاقدام قتال

(٣) الهموم: العزائم، واحدها هم (بفتح الهاء وتشديد الميم) مصدر هممت بالشيء (من باب قتل) اي أردته. ومغامر: ملق بنفسه في الغمرات والشدائد.

والمعنى ان الانسان اذا ضعف واستكان وخمل، قلت مطالبه، وسقطت همته في الحياة، واذا قوى وغامر اشتدت عزائمه، وعظمت همته.

(٤) يبين: يتضح. والورى: الخلق (بفتح فسكون) وسوم مصدر سام المشترى السلعة اي طلب بيعها، والمراد بالسوم هنا: المطلب. والمآثر: المكرمات والمفاخر: واحدتها مأثرة (بفتح الثاء وضمها).

والمعنى ان تنافس الرجال في شراء المحامد، وكسب المكرمات يظهر فضلهم وبعد همهم، كما يظهر نقص الخاملين وقصورهم.

(٥) الكمي: البطل الشجاع المدجج بالسلاح. والمفاخر: المآثر والمكرمات.

(٦) جابر: مغن، من قولهم جبر الله فلانا، أي اغناه من فقر، أو سدّ مفاقره.

والمعنى اذا انحطت همة الانسان في الحياة الى الاكتفاء بما يمسك الرمق، ويحفظ العيش اغناء القليل الزهيد من الطعام والشراب ونحوها، وهذا قريب من قول امرىء القيس الكندي:

ولو ان ما اسعى لادنى معيشة ... كفاني ولم اطلب قليل من المال

٣٨ـ فَلَوْلَا الْعُلَا مَا أَرْسَلَ السَّهْمَ نَازِعُ ... وَلَا شَهَرَ السَّيْفَ اليمانِّي شَاهِرُ(١)

٣٩ـ منَ الْعَار أَنْ يَرْضَى الدَنِيَّةَ مَاجِدُ ... وَيَقْبَلَ مَكْذُوبَ الْمُنَى وَهْوَ صَاغِرُ(٢)

٤٠ـ إِذَا كُنْتَ تَخْشَى كُلَّ شَيْءٍ منَ الرَّدَى ... فَكُلُّ الذِّي فِي الْكَوْنِ للنَّفْسِ ضَائِرُ(٣)

٤١ـ فَمنْ صحَّة الإِنْسَانَ مَا فيه سُقْمُهُ ... وَمِنْ أَمْنِه مَا فَاجَأَتْهُ الْمَخَاطِرُ(٤)

٤٢ـ عَلَيَّ طلَابُ الْعِزِّ منْ مُسْتَقَرِّهِ ... وَلَا ذَنْبَ لِي إِنْ عَارَضَتْنِي الْمَقَادِرُ(٥)

٤٣ـ فَما كُلُّ مَحْلُول الْعَرِيكَةِ خَائِبُ ... وَلَا كُلُّ مَحْبُوك التَّرِيكَةِ ظَافِرُ(٦)

الشرح اللغوي

(١) السهم: ما يرمى به الصائد ونحوه عن القوس ونحوها. ونازع: رام، من قولهم: نزع في قوسه أي مدها، وانتزع السهم من الكنانة، ورأى صيدا فانتزع له. وشهر السيف: واخرجه من غمده للضراب والقتال، (وبابه نفع). واليماني: نسبة على غير قياس إلى اليمن لاشتهاره قديما بصنع السيوف.

(٢) الدنية: النقيصة والعار. وماجد: عزيز شريف كريم. ومكذوب المنى: الاماني الكاذبة، والآمال الباطلة. وصاغر: ذليل راض بالضيم.

(٣) تخشى: تخاف. والردى: الهلاك. «من» هنا: سببية. وضائر: ضار.

يقول اذا كنت تتهيب عمل أي شيء خوفا من أن تكون عاقبته مميتة، فكل شيء يحيط بك ـ وتأملته ـ قد يؤدي الى الموت. وفي البيت الآتي توضيح لهذا المعنى.

(٤) يريد بالمخاطر: الاخطار، جمع خطر (بفتحتين)، وهو الاشراف على الهلاك، ولم نجد في المعجمات هذا الجمع بهذا المعنى، والذي بها أن المخاطر المراقى.

والمعنى أن الانسان قد يصيبه المرض من حيث يظن الصحة، وقد يباغته الهلاك من حيث يظن الامن والسلامة.

(٥) الطلاب: الطلب. ومستقره: مكان وجوده واستقراره. وعارضتني: اعترضتني وحالت دون مطلبي. والمقادر: جمع مقدار (بكسر فسكون)، وهو قدر الله تعالى وقضاؤه وحكمه. وهذا البيت مأخوذ من قول أبي فراس الحمداني المتوفى سنة ٣٥٧هـ.

على طلاب العز من مستقره ... ولا ذنب لي ان حاربتني المطالب

(٦) العريكة: النفس والطبيعة. ومحبوك: متقن محكم، اسم مفعول من الحبك (بفتح فسكون)، وهو الشد والاحكام، وتحسين اثر الصنعة في الثوب ونحوه. والتريكة (كسفينة): بيضة الحديد للرأس كالخوذة (بضم الخاء وسكون الواو) والمغفر (بكسر فسكون ففتح)، وحبك التريكة: كناية عن القوة والشجاعة وكمال الاهبة والاستعداد. والمعنى ان المقادير قد تسعد الضعيف فيفوز، وتعترض الكمي الشجاع فلا يظفر.

٤٤- فَمَاذَا عَسَى الْأَعْدَاءُ أَنْ يَتَقَوَّلُوا ... عَلَيَّ، وَعِرْضِي نَاصِحُ الْجَيْبِ وَافِرُ؟(١)

٤٥- فَلِي فِي مَرَادِ الْفَضْلِ خَيْرُ مَغَبَّةٍ ... إِذَا شَانَ حَيًّا بِالْخِيَانَةِ ذَاكِرُ(٢)

٤٦- مَلَكْتُ عُقَابَ الْمُلْكِ وَهْيَ كَسِيرَةٌ ... وَغَادَرْتُهَا فِي وَكْرِهَا وَهْيَ طَائِرُ(٣)

٤٧- وَلَوْ رُمْتُ مَا رَامَ امْرُؤٌ بِخِيَانَةٍ ... لَصَبَّحَنِي قِسْطٌ مِنَ الْمَالِ غَامِرُ(٤)

٤٨- وَلَكِنْ أَبَتْ نَفْسِي الْكَرِيمَةُ سَوْأَةً ... تُعَابُ بِهَا، وَالدَّهْرُ فِيهِ الْمَعَايِرُ(٥)

٤٩- فَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَالَ يَنْفَعُ رَبَّهُ ... إِذَا هُوَ لَمْ تَحْمَدْ قِرَاهُ الْعَشَائِرُ(٦)

٥٠- فَقَدْ يَسْتَجِمُّ الْمَالُ وَالْمَجْدُ غَائِبٌ ... وَقَدْ لَا يَكُونُ الْمَالُ وَالْمَجْدُ حَاضِرُ(٧)

الشرح اللغوي

(١) تقول عليه، كذب عليه. والعرض: النفس، او جانب الرجل الذي يصونه من نفسه وحسبه ان ينتقص ويثلب، او هو موضع المدح والذم من الانسان، او ما يفتخر به من حسب وشرف وخلائق محمودة. وناصح الجيب: ففي خالص. ووافر: تام.

(٢) مراد الفضل: مجاله، ومغبة الشيء: عاقبته وآخره. وشانه بكذا: انتقصه وعابه. يمتدح بأمانته وفضله، ويعرض بخيانة غيره ونقصه.

(٣) العقاب: طائر من جوارح الطير. وكسيرة: مكسورة. وغادرتها: تركتها. والمعنى انه في حكمه ووزارته اصلح امور الملك، وأقام معوجها، وازال ضعفها وفسادها.

(٤) رمت: أردت وطلبت. وصبحني: جاءني صباحا، والمراد سارع الى. والقسط: الحصة والنصيب. وغامر: كثير.

يشير الى انه سما بنفسه، وعف عن الغدر والخيانة، ولو طلب شيئا من عرض الدنيا بمثل هذه الوسائل الدنيئة لغمرة المال.

(٥) السوأة: العيب والنقيصة والخلة القبيحة. والمعاير: المعايب.

(٦) ربه: صاحبه. والقرى: ما قرى به الضيف من طعام وشراب، والمراد وجوه الانفاق. والعشائر: جمع عشيرة، وهي القبيلة.

والمعنى أن المال لا ينفع صاحبه الا اذا انفقه في وجوه الخير والبر، واشترى به حمد الناس وثناءهم.

(٧) يستجم: يجتمع ويكثر. والمجد: العز والشرف والكرم.

٥١ـ وَلَوْ انَّ اسْبَابَ السِيَادَة بِالْغِنَى ... لكَاثَرَ رَبُّ الْفَضْلِ بِالْمَالِ تَاجِرُ[1]

٥٢ـ فَلاَ غَرْوَ اَنْ حُزْتُ الْمَكَارِمَ عَارِياً ... فَقَدْ يَشْهَدُ السَيْفُ الْوَغَى وَهْوَ حَاسِر

٥٣ـ اَنَا الْمَرءُ لاَ يَثْنِيه عَنْ دَرَكِ الْعُلاَ ... نَعِيمٌ، وَلاَ تَعْدُو عَلَيْه الْمَفَاقِر

٥٤ـ قَئُولٌ وَاَحْلاَمُ الرِجَالِ عَوَازِبُ ... صَئُولٌ وَاَفْوَاهُ الْمَنَايَا فَوَاغِرُ[4]

٥٥ـ فَلاَ اَنَا إِنْ اَدْنَانِيَ الْوُجْدُ بَاسِمُ ... وَلاَ اَنَا إِنْ اَقْصَانِي الْعُدْمُ بَاسِر[5]

٥٦ـ فَمَا الْفَقْرُ إِنْ لَمْ يَدْنَسِ الْعِرْضُ فَاضِحٌ ... وَلاَ الْمَالُ إِنْ لَمْ يَشْرِفِ الْمَرْءَ سَاتِرُ[6]

الشرح اللغوي

(١) المعنى ان الغنى وحده لا يرفع صاحبه الى السيادة والمجد، ولو كان الامر كذلك لغالب التاجر بكثرة ماله الرجل الفاضل الماجد، وتقدم عليه.

(٢) لا غرو: لا عجب. وعاريا: المراد بلا مال. والوغى: الحرب. وحاسر: مكشوف، مجرد من غمده. يقول: انه لا عجب ان جمع المحامد والمكارم على الرغم من قلة ماله، ثم عزز دعواه، فشبه نفسه بالسيف يشهد الحرب، ولا يكسب النصر الا اذا جرد من غمده.

(٣) لا يثنيه: لا يصرفه ولا يكفه. ودرك العلا: إدراكها والوصول اليها وحيازتها. والمفاقر: وجوه الفقر، وانواعه واحواله. ومعنى الشطر الثاني ان الفقر لا يغير خلقه، ولا يضعف همته.

(٤) قئول: لسن فصيح. والاحلام: العقول. وعوازب: غائبة ذاهبة، وكنى بعزوب الاحلام عن اشتداد الخطب وتعقد الامور. وصئول: فاتك مقدام شجاع. وفواغر: مفتوحة، جمع فاغر، وكنى بانفغار افواه المنايا عن اشتداد الحرب، وتوقد نارها.

يمتدح بفصاحته وقدرته على حل المشكلات ا ذا اشتدت الخطوب، واستبهمت الامور، ثم بصولته وشجاعته وشدة بطشه إذا حمى الوطيس، واستعرت نار الحرب.

(٥) ادناني: قربني. والوجد (بتثليث الواو): الغنى (بكسر ففتح). واقصاني. ابعدني. والعدم: الفقر. وياسر: كالح الوجه عابس مبتئس.

والمعنى انها لا ينخدع إذا أدناه الغنى من متع الحياة ولذاتها، وكذلك لا يبتئس اذا اقصاه الفقر عنها، فهو قد وصل الى حال من القناعة والرضا بحيث لا يزهيه الغنى، ولا يجزئه الفقر.

(٦) دنس الثوب ونحوه: توسخ، (وبابه طرب) والعرض: النفس، وجانب الرجل الذي يصونه من نفسه وحسبه ان ينتقص ويثلب، او هو موضع المدح والذم من الانسان، او ما يفتخر به من حسب وشرف وخلائق محمودة.

يقول إن الفقر لا يضر مع شرف العرض وكرم الخلق، وان المال لا ينفع مع فقدان الشرف وضياع العرض.

٥٧ـ إِذَا مَاذُبَابُ السَّيْفِ لم يَكُ مَاضياً فَحْلَيْتُه وَصْمُ لدَى الْحَرَبِ ظَاهِرُ[١]

٥٨ـ فَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَصْبَحْتُ فَلَّ رَزِيَّةٍ تَقَاسَمَهَا فِي الأَهْلِ بَادٍ وَحَاضِرُ[٢]

٥٩ـ فَكَمْ بَطَلٍ فَلَّ الزَّمَانُ شَبَاتَهُ وَكَمْ سَيِّدٍ دَارَتْ عَلَيْه الدَّوَائِرُ[٣]

٦٠ـ وَأَيُّ حُسَامٍ لَمْ تُصِبْهُ كَلَالَةٌ؟ وَأَيُّ جَوَادٍ لَمْ تَخُنْهُ الْحَوَافِرُ؟[٤]

٦١ـ فَسَوْفَ يَبِنُ الْحَقُّ يَوْماً لِنَاظِرٍ وَتَنْزُو بِعَوْرَاءِ الحُقُود السَّرَائِرُ[٥]

٦٢ـ وَمَا هِيَ إِلَّا غَمْرَةٌ، ثُمَّ تَنْجَلِي غَيَابَتُهَا، واللهُ مَنْ شَاءَ نَاصِرُ[٦]

الشرح اللغوي

(١) ذباب السيف: حدة وماض: قاطع. ووصم: عيب وعار.

يسوق هذا البيت مثلا لحاله، وهو أنه قوي النفس على الرغم من قلة ماله، فهو يشبه نفسه بالسيف اذا لم يكن ماضي الحد كانت حليته لدى الحرب وصمة وعارا.

(٢) فل: منهزم. والرزية: المصيبة. وباد: مقيم في البادية، وهي الصحراء، وحاضر: مقيم في الحاضرة، وهي المدن والقرى والريف.

والمراد أنها مصيبة فادحة عظيمة، وكارثة عامة شاملة، اصابت في مصر البدو والحضر.

(٣) بطل: شجاع مقدام. وفل: ثلم وكسر، (وبابه رد). وشباة كل شيء: حده. والدوائر: النوائب والنوازل والخطوب.

(٤) الحسام: السيف القاطع. والكلالة: مصدر كل السيف ونحوه (من باب ضرب) أي لم يقطع، لتثلمه وتغلل مضاربه. وخيانة الحوافر: كناية عن الكبوة والسقوط، وهذا في معنى القول المشهور: «لكل صارم نبوة، ولكل جواد كبوة».

(٥) يبين: يتضح ويظهر.وتنزو: تثبت. والعوراء: الكلمة او الفعلة القبيحة. والحقود: جمع حقد (بكسر فسكون) وهو الضغن والانطواء على العداوة والبغضاء. والسرائر: جمع سريرة، وهي السر الذي يكتم.

يقول: ان الحق سوف يظهر يوما ما لمن ينظر إليه ويتبينه، وسوف تنكشف الاسرار، بما فيها من قبائح الحقد والضغينة.

(٦) الغمرة: الشدة. وتتجلى: تنكشف وتزول. وغيابة كل شيء: ما سترك منه. والمراد بغيابه الغمرة: ظلمتها، وما فدحه وأصابه منها.

٦٣- فَقَدْ حَاطَنِي فِي ظُلْمَةِ الْحَبْسِ، بَعْدَمَا ... تَرَامَتْ بِأَفْلَاذِ الْقُلُوبِ الْحَنَاجِرُ(١)

٦٤- فَمَهْلًا بَنِي الدُّنْيَا عَلَيْنَا، فَإِنَّنَا ... إِلَى غَايَةٍ تَنْفَتُّ فِيهَا الْمَرَائِرُ(٢)

٦٥- تَطُولُ بِهَا الْأَنْفَاسُ بُهْراً، وَتَلْتَوِي ... عَلَى فَلْكَةِ السَّاقَيْنِ فِيهَا الْمَآزِرُ(٣)

٦٦- هُنَالِكَ يَعْلُو الْحَقُّ، وَالْحَقُّ وَاضِحُ ... وَيَسْفُلُ كَعْبُ الزُّورِ، وَالزُّورُ عَاثِرُ(٤)

٦٧- وَعَمَّا قَلِيلٍ يَنْتَهِي الْأَمْرُ كُلُّهُ ... فَمَا أَوَّلٌ إِلَّا وَيَتْلُوهُ آخِرُ(٥)

الشرح اللغوي

(١) حاطني: صانني وحفظني وكلأني ورعاني، (وبابه قال وكتب). والضمير الفاعل يعود على الله تعالى. وترامت: اخرجت، من قولهم: ترامت به البلاد، أي اخرجته. وافلاذ القلوب: قطعها واجزاؤها، جمع فلذة (بكسر فسكون) وهي القطعة من الكبد واللحم وغيرهما. والحناجر: جمع حنجور كعصفور او جنجرة (بفتح فسكون ففتح)، وهي الحلقوم (بضم فسكون فضم). والشطر الثاني كناية عن اشتداد الخطب، وفظاعة الفادحة.

(٢) المراد بالغاية: يوم القيامة، وتنفت: تتفتت وتتقطع وتتمزق، والمرائر: جمع مرارة (بالفتح)، وهي هنة لازقة بالكبد. وانفتات المرائر: كناية عن اهوال ذلك اليوم وشدائده.

يقول لاعدائه المخدوعين بالدنيا: لا تشمتوا بنا، ولا تغرنكم هذه الحياة، فاننا جميعا نسير الى غاية هي الموت والحساب واهوال الآخرة التي تصغر ازاءها كل اهوال الحياة الدنيا.

(٣) البهر (بضم فسكون): تتابع النفس من الاعياء، وبالفتح المصدر، والبهر (بالفتح) ايضا: الكرب، والتكليف فوق الطاقة، والعجب (بفتحتين). وفلكة كل شيء: مستدارة ومعظمة. والمآزر: جمع مئزر، وهو الازار، والبيت كله كناية عن اهوال اليوم الآخر وشدائده، كما تقدم في البيت السابق.

(٤) عاثر: ساقط، في ذلك اليوم لا يعلو الا الحق ويسقط الزور والكذب والبهتان وهذه اشارة الى خصومه الذين كذبوا عليه ووشوا به واتهموه زورا وبهتانا بمحاولة خلع الخديوي توفيق.

(٥) ويردف قائلا: ان ايامه قد أوشكت على النهاية وقد أوشك هو على الرحيل فكل بداية لا بد لها من نهاية فهو هنا يستشعر الموت ويحس بقرب حلوله، والمعروف ان بصره كف، وخارت قواه في أواخر حياته.

الدراسة الفنية:ـ

يمكننا التعرف الى اسلوب الشاعر ومعانيه والفاظه وعواطفه من خلال النقاط التالية، والتي تلقي الضوء على شعره وشاعريته وعلى المؤثرات في انتاجه فالى هذه النقاط:

١ ـ سبق ان رأينا كيف ان البارودي كان يمثل جماعة البعث تلك الجماعة التي ظهرت في اواخر القرن التاسع عشر والتي مثلها بعد البارودي حافظ وشوقي، ولذلك يمكن اعتبار البارودي الأب الاول للنهضة الشعرية العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فقد نهل من الماضي واكب على تراث الفحول ونظر الى الحاضر وتفاعل مع احداثه.

٢ ـ من خلال رأي البارودي في الشعر يمكننا التعرف على أبرز ما ميز اسلوبه فخير الكلام عنده هو: ما ائتلفت الفاظه، وائتلفت معانيه، وكان قريب المأخذ، بعيد المرمى، بعيدا عن التكلف او التعسف او التصنع ولذلك كان الشاعر يدقق ويمعن النظر في اختيار الفاظه المناسبة لمعانيه فاذا تغزل رق لفظه ولان وان فخر او هجا كان لفظه جزلا قويا.

٣ ـ عرف البارودي بعنايته الشديدة بشعره فقد كان كثيرا ما ينشده ويجهر به قبل نشره، ولذلك كان يتعهده بالتهذيب والصقل واعادة النظر لمدة طويلة فهو ينتمي بهذا الصنيع الى أصحاب الشعر المحكك أو من عبيد الشعر.

٤ ـ من خلال دراستنا لشخصية البارودي وأخلاقه رأينا أنه كان يكره النفاق والكذب ويتمسك بأخلاق الفروسية التي تربى عليها ولذلك كان يقول:

انا لا اقر على القبيح مهابة ... ان القرار على القبيح نفاق
قلبي على ثقة ونفسي حرة ... تأبى الدني وصارمي ذلاق[1]
لا خير في عيش الجبان يحوطه ... من جانبيه الذل والاملاق[2]

٥ ـ كان البارودي وطنيا حرا مخلصا يدافع عن دينه ووطنه ويحارب كل مظاهر الظلم والاستبداد فهو يمثل روح القومية الجديدة التي سرت روحها قوية في أمة العرب وقد زاده المنفى حبا لوطنه وأمته، ولذلك نراه يدافع عن نفسه في المنفى قائلا:

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ... ذنب أدان به ظلما واغترب

٦ ـ لقد مثل البارودي في شعره الجيل الجديد المحترم والمتأثر بميراث الاجداد حيث جارى الاقدمين في اغراضهم واساليبهم بل واوغل في التقليد والمحاكاة والاتباع حتى ذكر الرسوم والاطلال ولكنه كان دائما مطبوعا في مجاراته فقد وثب بالعبارة الشعرية من حالة الركاكة والضعف الى حالة القوة والصحة والمتانة والازدهار.

---

(١) الصارم: السيف الذلاق: الحاد الاملاق: الفقر

لقد جمع البارودي بين مجاراة الاقدمين والتمشي مع المحدثين فأساليبه مستقاة من نهج الاقدمين، وشعره يصور شخصيته العسكرية وما اصابها من الالام النفسية كما انه يصور آلام الامة وتعطشها للحرية وتوقها للعدالة والمساواة وهكذا نراه جديدا قديما معا.

٧ ـ لقد تميز البارودي في شعره عامة بجزالة اللفظ وفحولة النظم ورصانة القافية. ومتانة ديباجته واشراقها مع فخامة بيانه وروعته وعذوبة موسيقاه. فقد كان يسير في قصيدته وفق النمط العربي القديم مع مسحة حضرية تتمثل في رقة طبعه ووضوح معناه، وسلاسة اسلوبه، وقد نجده في بعض الاحيان بدويا صرفا.

٨ ـ لقد تميز البارودي ـ كما تميز غيره من رواد النهضة ـ بدقة التعبير والمتانة اللغوية مع وفرة المعاني، واستقامة النظم، فقد جدد الشاعر في موضوعاته الشعرية فالحديث عن طيف ابنته وهو في المنفى والانتقال الى العبر المستفادة من الدنيا مع التعرض الى المنافقين وفئة النفعيين هذه موضوعات جديدة لم يتطرق اليها الشعر العربي من قبل في معظمه.

فقد جدد الشاعر في موضوعاته واخيلته وتلك المسحة الرومانسية التي تفوح منها رائحة الانطوائية والعودة للماضي وذكرياته. ولكنه بقي مقلدا في اسلوبه وتعبيره وأوزانه.

٩ ـ لقد جاء شعره كما وصفه هو بقوله «ليس فيه شيء من تعقيد الفكرة، ولا سن القضايا المنطقية والمعاني المتوغلة في العمق، والاراء الفلسفية» ولذلك كان الشعر عنده تهذيبا للنفس وتدريبا للافهام وتنبيها للخواطر الى مكارم الاخلاق فليس في شعره تكلف أو قلق او اضطراب او تعسف بل هو ومضة تلمع وتحلق في سماء الخيال.

١٠ ـ وأخيرا تظهر عواطف الشاعر جلية واضحة فهي تتوزع بين عاطفة الحنين والتشوق والابوة الحانية الى عاطفة الايمان بقضاء الله تعالى وقدره والتسليم بالامر الواقع الى عاطفة الاعتزاز بنفسه وصفاته وأخلاقه ولمز أعدائه وحساده.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

أحمـــد شوقـــي

«رثاء عمـر المختار»

احمد شوقي
«١٨٦٨ ـ ١٠٩٣٢م»

حيـــاته:

ولد احمد شوقي بالقاهرة سنة ١٨٦٨م في اسرة امتزجت فيها الدماء الكردية والتركية والشركسية واليونانية الى جانب الدماء العربية وقد اكسبه هذا التمازج حدة في الطبع، وصفاء في الذهن، فكان شديد التقلب وشديد التطير والجزع وكان طيب المعشر، كريم النفس واليد معا، سريع الرضى والغضب، محبا لوطنه حبا لا يدانيه شيء:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي

نشأ شوقي في هذه الاسرة والتحق في بداية أمره بكتاب الشيخ صالح حيث قضى فيها اربع سنوات انتقل بعدها الى مدرسة «المبتديان» الابتدائية ثم الى المدرسة التجهيزية ثم التحق بمدرسة الحقوق والتحق بعد سنتين بقسم الترجمة ونال الاجازة فيهما.

وقد تولاه الخديوي توفيق برغايته وعطفه فعينه مفتشا للخاصة الخديوية بعد أبيه، كما ارسله سنة ١٨٨٧ الى جامعة «مونبليه» بفرنسا حيث درس الحقوق والاداب ونال فيهما الاجازة ثم عاد الى مصر سنة ١٨٩١ بعد ان اطلع على احدث ما توصل اليه الغرب في ميدان العلم والادب.

ويمكن تقسيم حياته بعد عودته الى المراحل والاطوار التالية:

اطواره الشعرية:

أ ـ الطور الاول: ويمتد من سنة ١٨٩٢ ـ ١٩١٤ وهي مرحلة ما قبل النفي وقد اختص في هذه المرحلة بالقصر واصبح شاعره دون منافس ولا منازع، ينظم القصائد والاشعار باسمه، ويدعو الى سياسته وتسمى هذه المرحلة بمرحلة الامير عباس حلمي الذي اختصه لنفسه وانتدبه سنة ١٨٩٤ لتمثيل مصر في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في جنيف، وعندما وقع الخلاف بين عباس والانجليز وقف الى جانبه وهاجم الانجليز واللورد كرومر ورئيس الوزارة المصرية آنذاك مصطفى رياض، وشعره في هذه المرحلة هو شعر الشباب المندفع نحو الحرية والاستقلال المحب للحياة والناس وكثر في هذه المرحلة شعر القصور والمناسبات كما كثرت غزلياته وتقليده لأدب الانحطاط المتمثل في الاراجيز التاريخية والصوفية.

ب ـ الطور الثاني: ويمتد من سنة ١٩١٥ ـ ١٩١٩م وهي مرحلة المنفى حيث قامت الحرب العالمية الاولى وتم خلع عباس عن عرش مصر واختار شوقي برشلونه منفى له وفي منفاه اتيحت له الفرصة للمطالعة والدراسة وحب الوطن والحنين اليه حيث نراه يتجول في

انحاء الاندلس وجزر البليار وقد اوحت له اشبيليه روايته المعروفة «اميرة الاندلس» وكثر في هذه الفترة شعره الوجداني وشعر الحنين والمعارضات فقد عارض نونية ابن زيدون وسينية البحتري.

ويعتبر هذا الطور مرحلة الانعتاق والتحرر عند شوقي فقد وجد حريته المطلقة في منفاه وتحرر من سياسة القصر واغلاله ومن نمط البطانة وارضاء هوى السلطان وغروره فيعود الشاعر الى ذاته في جو من الوحدة والخشوع فيصدر عنه انماط من الشعر الوجداني الغنائي تمتزج فيه ارق العواطف الانسانية وأروعها وقد ساعده النفي والاغتراب كما ساعدته البيئة الاندلسية الساحرة على تعميق هذا الاتجاه الوجداني الغنائي في شعره.

ومجمل القول ان النفي قد أعاد الى شوقي روحه الشاعرية الحقة وامكنه من معرفة نفسه واستغلال طاقاته، وبعث خياله مجنحا في سماء رحبة وصافية، وعواطف وطنية دفاقه.

وتنتهي هذه المرحلة بانتهاء الحرب وعودته إلى مصر لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل شاعرية شوقي.

جـ ـ الطور الثالث: ويمتد من سنة ١٩٢٠ ـ ١٩٣٢م وهي المرحلة التي لقب فيها شوقي بشاعر الشعب وتسلم امارة الشعر سنة ١٩٢٧م في احتفال ضم شعراء وادباء العرب[١] يتقدمهم حافظ ابراهيم مبايعا بقوله:

أميرَ القوافي قد اتيتَ مبايعاً وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

وفي هذه المرحلة نزل شوقي من بلاط الخديوي الى الشعب وتحسس آلامه وتعرف الى آماله ورأى الشعب قد بدأ يأخذ زمام المبادرة فانتشر التعليم وكثرت مجالس الادب والفكر وسرت في الناس رغبة جامحة نحو التحرر والاستقلال ورفع الظلم عن كاهلهم ولذلك سجل شوقي هذه التغيرات في قصائد خالده لا زالت مضرب المثل مثل قصيدته في نكبة دمشق وغيرها من القصائد في شتى المواضيع التي يميل اليها عامة الناس وما يضطرب به الشرق من الاحداث الجسام ولذلك كان شعره في هذه المرحلة اكثر خصبا وأتم نضجا، واعظم واقعيـة وصدقا بالرغم من ان اشعاره السياسية ومدائحه ومراثيه وادعيته وكثيرا من اخلاقياته واجتماعياته واكثر اشعاره التعليمية في هذه المرحلة كان الهدف منها هو أن ينال الرضى والقبول وسعة الانتشار على حساب المستوى الفني للشعر.

وقد برزت من خلال اشعاره تلك عواطف انسانية عالية من مثل عاطفة حب الوطن حبا يصل الى حد التقديس، وكذلك حب الدين بعيدا عن روح التعصب، ثم حب الحرية ظهر في دعوته للشباب للنهوض بالوطن وتحقيق الاستقلال وتحرير المرأة من العادات والتقاليد البالية التي كبلتها زمنا طويلا وكل ذلك الاثر جاءه بتأثير من الحياة الاوروبية التي عاشها عن قرب وشارك فيها في اثناء اقامته بفرنسا.

---

(١) لم يقر العقاد والمازني لشوقي بهذه الامارة بل انهم وصفوه بالتمثال الخزفي وان كل من بايعوه ليس الا تزلفا ورياء له وان اوصى له بالامارة وهو طه حسين الذي كان له من السلطان والنفوذ ما يجعلهم يخشون جانبه ويخافون معارضته.

ومع اقتراب انتهاء هذه المرحلة نراه يطوف دول اوروبا وبلاد العروبة الى ان فاضت روحه الى بارئها سنة ١٩٣٢ تاركا وراءه من الابناء علي وحسين ومن البنات امينة.

وبالاجمال فان شوقي كان من المجددين والمقلدين في آن واحد بالرغم من ان البعض يعده من المقلدين فقط وهو رأي لا يستساغ بالنظر الى نتاج الشاعر ومواضيع شعره ومقومات هذا الشعر حيث اشار شوقي نفسه الى مقومات هذا الشعر فجعلها حكمة العرب مع وصف اليونان وحسن الترك وهمشرية الاكراد مضافا الى هذه جميعها مطالعاته الواسعة والدائمة واسفاره الكثيرة مع ما يقع عليه نظره وحسه من المشاهد والمناظر ثم واقع بلاده والمشرق بصفة عامة وقد اختلطت هذه العناصر جميعها معا لتنتج لنا عبقريته الشعرية الفذة والغنية الخصبة.

وبالرغم من كل ذلك فقد شاب عبقريته بعض الشوائب كان من اهمها ركونه الى هذه العبقرية مما اوقعه في الكسل والجمود والعجز والفوضى في بعض الاحيان هذا بالاضافة الى ركونه الى حياة البلاط وانصرافه عن الكد والعناء الى الدعة والرفاه ثم اعتماده على شهرته الذائعة الامر الذي حد من هذه العبقرية.

أضف الى ذلك ايضا صرف اهتمامه وجهده الى انتقاء الالفاظ ذات الجرس الموسيقي الساحر على حساب المعنى كل هذه الشوائب مجتمعة جعلت العقاد يصفه بأنه «كان ولا يزال يستوي على ارفع القمم العالية بين نهاية التقليد وبداية التجديد».

آثـــاره:

ترك لنا أمير الشعراء من الآثار الشعرية والنثرية الشيء الكثير واليك أهمها:ـ

١ ـ ديوانه الشعري والمسمى «الشوقيات» ويقع هذا الديوان في أربعة اجزاء اشتمل الجزء الاول على الشعر السياسي والاجتماعي والتاريخي اما الجزء الثاني فقد تضمن شعر الوصف والغزل، وكان الجزء الثالث مخصصا للمراثي اما الرابع فقد اشتمل على متفرقات من المدائح والاخوانيات والامثال وغيرها ولم يعرف عنه انه قال في الهجاء.

٢ ـ مجموعة أراجيز تاريخية تسمى «دول العرب وعظماء الاسلام».

٣ ـ مجموعة من المسرحيات الشعرية اهمها: مصرع كيلوبترا، مجنون ليلى، قمبيز، عنتره.

وقد جاءت هذه المسرحيات في الطور الاخير من شعره حيث جاء بها لارضاء العامة مستمدا احداثها من تاريخ مصر القديم والتاريخ العربي بشكل عام، ونظرا لعدم خبرته في العمل المسرحي وشروطه فقد وقع في كثير من الاخطاء في الاحداث التاريخية وفي العقدة وفي الفوضى المسرحية والخروج على المعقول وغير ذلك من الاخطاء مما اضعف مسرحياته ولم يوفق في كثير منها.

عمـــر المختار(*)

١ـ ركَزُوا رُفاتَكَ في الرِّمال لِواء ... يَستنهضُ الوادي صباحَ مساءَ[١]
٢ـ يا وَيْحَهم! نصبوا مَناراً من دمٍ ... تُوحِي إلى جيل الغدِ البَغْضاءَ[٢]
٣ـ ما ضَّر لو جَعلوا العلاقةَ في غدٍ ... بين الشعوب مَوَدَّةً وإخاءَ؟
٤ـ جُرحٌ يَصيحُ على المدَى، وضَحيَّةٌ ... تتلمَّسُ الحريَّةَ الحمراءَ[٣]
٥ـ يا أيُّها السيفُ المجرَّدُ بالفَلا ... يكسو السيوفَ على الزمان مَضاءَ
٦ـ تلك الصحارى غِمدُ كلِّ مُهَنَّدٍ ... أبلَى فأحسنَ في العدوِّ بَلاءَ
٧ـ وقبورُ مَوْتَى من شبابِ أُمَيَّةٍ ... وكهولِهم لم يبْرَحوا أحياءَ
٨ـ لو لاذَ بالجوزاءِ منهم معقِل ... دخلوا على ابراجها الجوزاءَ[٤]
٩ـ فتحوا الشَّمالَ: سُهولَهُ وجبالَهُ ... وتوغَّلوا، فاستعمروا الخضراءَ
١٠ـ وبَنَوْا حضارتَهم، فطَاوَلَ ركنُها ... (دَارَ السلامِ)، و (جلَّقَ) الشَّمّاءَ[٥]

(*) شهيد المسلمين والعرب بطل طرابلس الخالد عمر المختار، هو من الاسرة السنوسية اصحاب الطريقة السنوسية ذات النفوذ الروحاني العظيم في كثير من اقطار الاسلام، ظل يقاتل الطليان في سبيل الذود عن وطنه وقومه، حتى قبضوا عليه وأعدموه شنقا سنة ١٩٣١، واشيع وقتئذ انهم سلكوا في اعدامه سبلا بشعة متوحشة، ولم يرحموا سنه التي نيفت على التسعين.

١ ـ ركز اللواء: غرزه في الارض. وهذا استعمال لغوي مشتق من الركيزة، وهي قطع الفضة والذهب والمعادن، كان العرب في الجاهلية يحفرون لها في الارض، ويسمونها الدفائن، فقوله: «ركزوا رفاتك» استعمال اريد به الاشارة الى ان هذه الرفات من النفائس والذخائر، التي يضن بها ويحرص عليها

٢ ـ المنار: موضع النور، وجعلها منارا من دم. هو لون من التشبيه العجيب، كأنه يعجب كيف جعلوا موضع النور والائتناس محلا للتنفير والازعاج

٣ ـ الحرية الحمراء: هي المكتسبة بالدم، اشارة الى قولهم: الحرية شجرة لا تنبت الا بالدماء

٤ ـ الجوزاء: نجم معروف في السماء ـ

٥ ـ دار السلام: بغداد. وجلق: دمشق.

١١ـ خُيِّرْتَ فاخْتَرْتَ المبيتَ على الطَّوَى ... لم تَبْنِ جاهاً، او تَلُمَّ ثَراءَ[١]
١٢ـ إنَّ البطولةَ ان تموتَ من الظُّما ... ليس البطولةُ ان تَعُبَّ الماءَ
١٣ـ إفريقيا مَهْدُ الأُسودِ ولَحْدُها ... ضجَّتْ عليكَ أراجلاً ونساءَ
١٤ـ والمسلمون على اختلافِ ديارِهم ... لا يملِكون معَ المُصابِ عَزاءَ
١٥ـ والجاهليةُ من وراءِ قُبورِهم ... يبكون زَيْدَ الخيلِ والفَلْحاءَ[٢]

١٦ـ في ذِمة اللهِ الكريمِ وحفظِه ... جَسَدٌ (ببرْقة) وُسِّدَ الصحراءَ[٣]
١٧ـ لم تُبْقِ منه رَحَى الوقائعِ اعظُماً ... تَبْلَى، ولم تُبْقِ الرِّماحُ دِماءَ
١٨ـ كَرُفاتِ نَسْرٍ او بَقِيَّةِ ضَيْغَمٍ ... باتا وراءَ السَّافياتِ هَباءَ[٤]
١٩ـ بطلُ البَداوةِ لم يكن يَغْزو على ... «تَنْكٍ»، ولم يَكُ يركبُ الأجواءَ[٥]
٢٠ـ لكنْ اخو خَيْلٍ حَمَى صَهَواتِها ... وادارَ من اعرافها الهيجاءَ[٦]

٢١ ـ لَبَّى قضاءَ الأرضِ امسِ بمُهْجَةٍ ... لم تخْشَ إلَّا للسماءِ قضاءَ
٢٢ـ وافاهُ مَرْفوعَ الجبينِ كأنه ... سُقْراطُ جَرَّ إلى القُضاةِ رداءَ
٢٣ـ شَيْخٌ تَمالَكَ سِنَّهُ لم ينفجرْ ... كالطفل من خوفِ العِقابِ بُكاءَ
٢٤ـ واخو أُمورٍ عاشَ في سَرَّائها ... فتغَيَّرتْ، فتوقَّعَ الضَّراءَ[٧]
٢٥ـ الأُسْدُ تزأرُ في الحديدِ ولن ترى ... في السِّجنِ ضِرْغاماً بكى اسْتِحْذاءَ
٢٦ـ واتى الأسيرُ يَجُرُّ ثِقْلَ حَديدِه ... اسَدٌ يُجَرِّرُ حَيَّةً رَقْطاءَ
٢٧ـ عَضَّتْ بساقَيْهِ القُيودُ فلم يَئُؤْ ... ومَشَتْ بهَيْكله السِّنون فناءَ
٢٨ـ تِسْعُونَ لو رَكِبَتْ مَناكِبَ شاهقٍ ... لترجَّلَتْ هَضَباته إعياءَ[٨]
٢٩ـ خَفِيَتْ عن القاضي، وفات نَصيبُها ... من رِفْقِ جُنْدٍ قادةٍ نُبَلاءَ
٣٠ـ والسِّنُّ تَعْصِفُ كُلَّ قَلبٍ مُهَذَّبٍ ... عَرَفَ الجُدودَ، وأدرَكَ الآباءَ

---

١ ـ اللم: الجمع ـ ٢ ـ الفلحاء: لقب عنترة العبسي، اما زيد الخيل فعلم على فارس بهذا الاسم ـ ٣ ـ برقة: هي المنطقة الشرقية من ليبيا، فتحها عمر بن العاص سنة ٦٤١م، وسميت باسم عاصمتها القديمة. وقد اشتهرت بوقائعها الحربية المتعددة التي حدثت بين العرب والطليان. ٤ ـ السافيات: الرياح ـ ٥ ـ تنك: هي الدبابة المستعملة في الحروب ـ ٦ ـ الهيجاء: الحرب. ـ ٧ ـ السراء: المسرة، الضراء: الضرر.

٨ـ الشاهق: الجبل. والتسعون: هي التسعون عاما التي يحدد بها عمر المرثي حين قبضوا عليه ليعدموه

٣١- دفعوا إلى الجلَّادِ أغلَبَ ماجداً يأسُو الجراحَ، ويُطلِقُ الأسراءَ
٣٢- ويُشاطرُ الأقرانَ ذُخْرَ سلاحِه ويَصُفُّ حَوْلَ خِوانِه الأعداءَ(٢)
٣٣- وتخيَّروا الحبلَ المَهينَ مَنيَّةً للَّيْثِ يلفظ حَوْلَهُ الحَوْباءَ(٣)
٣٤- حَرموا المماتَ على الصُّوارمِ والقَنا مَنْ كان يُعْطِى الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ(٤)
٣٥- إنى رأيتُ يَدَ الحضارةِ أولِعَت بالحقِّ هَدْما تارةً وبناءَ
٣٦- شَرعَتْ حُقوقَ الناسِ في أوطانِهم إلَّا أُباةَ الضَّيْمِ والضُّعَفاءِ
٣٧- يأيُّها الشعبُ القريبُ، اسامعٌ فاصوغَ في عُمَرَ الشَّهيدِ رِثاءَ؟
٣٨- أم أَلجَمَتْ فاكَ الخطوبُ وحَرَّمت أُذنَيْكَ حينَ تُخاطَبُ الإصْغاءَ(٥)
٣٩- ذهب الزعيمُ وانتَ باقٍ خالدٌ فانقُد رِجالَك، واختَرِ الزُّعَماءَ
٤٠- وارخْ شيوخَكَ من تكاليفِ الوَغَى واحْمِلْ على فِتْيانِكَ الأعْباءَ

المناسبة:-

نظم أحمد شوقي هذه القصيدة في رثاء شيخ الشهداء وفارسهم بطل طرابلس والجبل الاخضر عمر المختار سليل الاسرة السنوسية ذات الدين والتقوى والنفوذ الواسع في نواحي ليبيا والمغرب العربي وقد نظم هذه القصيدة في رثاء هذا المجاهد الكبير اثر شنقه على يد الطليان المستعمرين سنة ١٩٣١م في محاكمة صورية وقد اظهر الشهيد البطل رباطة جأش فائقة، وقوة نادرة وايمان عميق وشجاعة رائعة في اثناء قتاله المستعمر الايطالي فما كان من شوقي أمير الشعراء وشاعر الوطنية الصادقة والاسلام القوي إلا أن اتخذ من هذه المناسبة العظيمة والذكرى العطرة وسيلة للهجوم على المستعمرين في ليبيا وجميع أنحاء الوطن العربي الكبير واستغلها في تمجيد الشهادة والشهيد في سبيل دفع أمته أمة العرب - إلى مقارعة المستعمر البغيض وطرده ونيل الحرية والاستقلال.

- ٢ - الخوان: مائدة الطعام، يشاطر: يشارك، أقرانه: امثاله - ٣ - الحوباء: النفس. - ٤ - الصوارم: السيوف، القنا: الرماح، النجلاء: النافذة. - ٥ - الجمت: اغلقت، الخطوب: المصائب.

الشرح اللغوي

١ ـ يخاطب الشاعر الشهيد البطل عمر المختار قائلا: لقد ظن المستعمرون انهم بقتلك ودفنك في الرمال قد أزالوا أثر جريمتهم النكراء ولم يعلموا ان قبرك وجسدك الطاهر قد اصبح من الاشياء الثمينة والمقدسة التي يتذكرها الناس في كل مناسبة وطنية وان قبرك أصبح مزارا يزوره المواطنون في كل حين ولذلك أصبح جسدك الطاهر الرمز والمعلم والراية التي يهتدي بها الحائر كما أصبح قبرك وذكرى مقتلك من الامور التي تبعث في النفوس القوة والثورة على المستعمر وأعوانه فخاب ظن المستعمر بقتلك وجاء الامر على عكس ما مكروا وخططوا.

٢ ـ يقول: الويل كل الويل للمستعمرين الذين جعلوا جسدك بطريقة غير مقصودة منارة يهتدى بها الشعب والاجيال القادمة في نضالها وكفاحها ضد المستعمرين.

٣ ـ يتعجب الشاعر من المستعمرين وتصرفاتهم قائلا: ما الضرر الذي يقع على هؤلاء المستعمرين لو جعلوا العلاقة بين الشعوب تقوم على الود والمحبة والاخاء والمساواة فلا سيد ولا عبد ولا ظالم ولا مظلوم فيكونوا بذلك قد رسموا وجها مشرقا للمستقبل وللاجيال القادمة.

٤ ـ يقول الشاعر: ان مقتل أو جريمة قتل شيخ الشهداء عمر المختار يعد جريمة لا تغتفر وجرحا لن يندمل وسيبقى نازفا طالبا الثأر من الغزاة المستعمرين داعيا أهله وذويه للانتقام لمقتله ولن يتحقق ذلك الا بطرد المحتل الغاصب وتحقيق الحرية والاستقلال للشعوب المضطهده.

٥ ـ شبه الشاعر الشهيد عمر المختار في قبره بالسيف في غمده غير ان هذا السيف قد استل من غمده وأخذ يزود سيوف المجاهدين بالقوة والعزيمة على مدى الزمان حتى طرد المحتل والقضاء على المستعمر.

٦ ـ ان الصحراء الليبية التي دوخت المستعمرالايطالي على رمالها ستبقى على مدار الزمن الغمد الذي يحمي السيوف وتحتفظ بها في بطنها ـ السيوف هنا هي جماعة المجاهدين وعلى رأسهم عمر المختار الذي دفن بتلك الصحراء ـ فالصحراء تشهد لهؤلاء وقوتهم وعظيم عطائهم للامة والاسلام.

٧ ـ كما ان هذه الصحراء تحوي ببطنها علاوة على رفاة شيخ الشهداء الكثير الكثير من ابطال بني امية الذين دخلوا هذه الديار فاتحين ومحاربين في سبيل الاسلام ونشره وهؤلاء لا زالوا احياء بذكراهم وجهادهم وحسن بلائهم في الجهاد (الشاعر هنا متأثر بمعنى

الشهادة والشهيد التي وردت في القرآن الكريم ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون).

٨ ـ ثم يتابع حديثه عن جهاد بني امية ورجالهم قائلا: لو احتمى اي عدو منهم بأن صعد الى السماء واختبأ بالجوزاء لتبعه هؤلاء ودخلوا برج الجوزاء هذا وقتلوا عدوهم وعدوا الله (وفي هذا استحضار لاقوال العديد من قادة المسلمين وبخاصة الذين وصلوا إلى الشمال الافريقي وقالوا والله لو نعلم أن وراء هذا البحر عدوا لركبناه).

فهو هنا يستحضر التاريخ العربي الاسلامي وامجاد الامة ومآثرها في سبيل استنهاض الهمم ومقاومة المستعمر.

٩ ـ ولذلك فتح هؤلاء الشمال الافريقي بكامله سهوله وجباله ووهاده لم يقف في طريقهم اي عدو وتوغلوا في فتوحاتهم حتى وصلوا جزيرة الاندلس الخضراء المشهورة بخيراتها ونباتها وخضرتها الدائمة.

١٠ ـ ولذلك شملت حضارة بني أمية مناطق شاسعة، ولم يكن جهد الامويين مركزا على الفتح والتوسع بل اهتموا بالبناء والعلم والحضارة ولعل دمشق وبغداد خير شاهد على ما وصل اليه العرب المسلمون من التقدم والرقي على المستوى العسكري والمادي والفكري.

١١ ـ يعود الشاعر ليخاطب شيخ الشهداء عمر المختار قائلا: لقد فضلت الجوع والعطش والتشرد على الذل والاستكانة والاستسلام فلم يكن هدفك من ثورتك وجهادك إلّا نصرة الاسلام والمسلمين ورفع الظلم عنهم وتحقيق الحرية والاستقلال لوطنك وأمتك.

ولذلك رفضت جميع العروض التي عرضها عليك المستعمر مقابل انهاء ثورتك. (الشاعر هنا يشير الى ما جرى بين شيخ الشهداء والمستعمر الايطالي عندما عرضوا عليه اموالا طائلة وراتبا شهريا جيدا مقابل تسليمه للسلاح وانهاء ثورته غير ان الشهيد رفض بشدة هذا العرض بل وسخر من الطليان وعقم تفكيرهم).

١٢ ـ ثم يردف قائلا: ان البطولة تكون في الصبر على الشدائد وعلى مغريات الحياة الدنيا ومغريات المستعمر الذي يملك الكثير من المادة ليشتري بها النفوس والاوطان وليس من البطولة ان ترد الماء وتشرب منه ما تريد فهذا عمل يقوم به كل انسان اما الامتناع عن شرب الماء وهو أمامك وانت في أشد الحاجة اليه فهنا تكون البطولة ويكون الصبر وهكذا فعل الشهيد البطل الذي صبر على الفقر والمرض والتشرد في الوقت الذي كان فيه الماء أمامه ـ وهو مغريات المستعمر المادية.

١٣ ـ ثم يضيف قائلا: وهذا الوضع ليس غريبا فافريقيا انجبت عبر التاريخ الكثير من

الابطال والمجاهدين الذين دوخوا المستعمر وحاربوه دون كلل أو ملل والذين استشهدوا واحتضنتهم أرضها الطهور وروت دماؤهم ثراها الطاهر ونتيجة لهذا التاريخ النضالي الرائع لافريقيا نراها تخرج جميعها رجالا ونساء شيبا وشبابا لوداعك الوداع الاخير.

١٤ ـ وبالاضافة الى افريقيا التي حزنت عليك أشد الحزن فقد شاركها أيضا العالم الاسلامي بكامله في شتى بقاعه فالمأساة إنسانية وإسلامية عامة لم تخص افريقيا أو ليبيا لوحدهما فالعالم الاسلامي مجتمع واحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

١٥ ـ يقول بأن الرجال العظماء والفرسان الأقوياء يبقون دائما الذكرى والعبرة لأممهم على مدار الزمن وكذلك أنت يا عمر ستبقى في ذاكرة الشعوب الاسلامية رمز الجهاد المقدّس والكفاح البطولي ضد الظلم والطغيان في كل عصر وجيل، فلا زال العرب يذكرون بالفخر والاعتزاز عنترة العبسي وزيد الخيل.

١٦ ـ ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك الى تأبين الشهيد البطل فيدعوا له بالرحمة وان يكون في ذمة الله وحفظه ورعايته وان يسكنه فسيح جنانه ذلك الجسد الطاهر الذي دفن ببرقة تلك المنطقة التي شهدت بطولاته وجولاته وانتصاراته ضد الطليان.

١٧ ـ يشير هنا إلى كثرة الوقائع والحروب التي خاضها شيخ الشهداء ضد الطليان فقد كانت تلك الوقائع والغزوات من الكثرة ما جعل عظام الشهيد ضعيفة وقد ظهر عليها الكبر كما أن جسده كان مليئا بأثر الاصابات والجروح التي كان يصاب بها في حروبه (أي انه لم يبق في جسمه شبر الا وفيه ضربة من سيف أو رمية من رمح).

١٨ ـ فلم يبق من جسده الطاهر الا بقايا قليلة تذروها رياح الصحراء (شبه الشاعر الشهيد بالنسر الذي كان لا يطير ولا يتطلع إلّا إلى المعالي كما رمز اليه بالأسد في عرينه في صحراء برقة التي استعصت على الغزاة المحتلين عندما كان ذاك الاسد ـ الشهيد ـ فيها.

١٩ ـ لقد كان عمر المختار بطلا يقاتل في الصحراء على صهوة حصانه ولم يك كالمستعمر الذي يستخدم في حربه الطائرات والمدرعات وغيرها من اسلحة الفتك الحديثة فلم تكن المعركة بينهما متوازنة أو عادلة ورغم ذلك لم يضعف الشهيد ولم يستسلم أو يذل للعدو بل قاتله بكل ما أوتي من قوة.

٢٠ ـ فهو فارس الفرسان، أبيّ شريف يحرص كل الحرص على حماية حماة وصيانة خيوله ـ رمز شرفه وفروسيته ـ التي ادار من على ظهرها حربا ضروسا ضد محتل اثيم ومغتصب حاقد، سلاحه الايمان القوي بالله وبعدالة قضيته.

٢١ + ٢٢ ـ ونتيجة لايمانه العميق بربه وبقضيته فقد استجاب لنداء الجهاد دون خوف أو وجل بايمان عميق ان الاجل من عند الله تعالى ولذلك وافاه اجله ـ قضاء السماء

ـ وهو في عنفوان قوته وثورته وجهاده ضد الظلم ونصرته للحق فكان امام الموت ـ المشنقة ـ مرفوع الجبين معتزا بهذه الميتة الشريفة وقد أدى الرسالة والامانة ورجع الى ربه راضيا مرضيا وقد قام بواجبه في قتال المستعمرين اعداء الله والانسان خير قيام ولذلك تقدم الى حبل المشنقة وهو في ثبات سقراط الفيلسوف اليوناني الشهير وقد حكمت عليه المحكمة بتجرع السم نتيجة لافكاره وآرائه التي آمن بها ودافع عنها.

٢٣ ـ لقد كان الشهيد البطل يسير الى حتفه باتجاه المشنقة التي نصبها له المستعمر الايطالي متحاملا على نفسه وقد بلغت منه السنون مبلغا وبلغ من الكبر عتيا فلم يرتعد أو يخف أو يتراجع عن مصيره لأنه قدره الذي وافاه ولا مناص منه فهذا هو مصير المجاهدين إحدى الحسنيين نصر أو شهادة في سبيل الله وهو مرفوع الرأس والجبين.

٢٤ ـ لقد كان عمر المختار مجربا وخبيرا بالايام واحوالها ولذلك ما ان ضحكت له الدنيا ورأى منها الخير والمسرة حتى توقع منها الضراء والشدة لأنه على يقين بأنها لا تثبت على حال، ولذلك ما ان قلبت له ظهر المجن حتى توقع المصائب والشدائد فكان ما توقعه حقا وجاء البلاء الايطالي البغيض الذي نال الشهادة في قتاله وجهاده.

٢٥ ـ انتقل الشاعر هنا ليصف الموقف الذي اعدم فيه شيخ المجاهدين فيصفه عندما جيء به والحديد في يديه ورجليه يسير بثبات وحزم كالأسد فلا يرتجف ولا يتعثر وليس هذا غريبا على عمر المختار فاننا لم نر في يوم من الأيام أسدا يبكي أو يذل إذا دخل السجن فهو أسد في السجن وخارجه وكذلك عمر المختار أسد في القيد وخارج القيد في ميادين القتال والطليان اعرف الناس به في تلك الساحات.

٢٦ ـ يشبه الشاعر هنا عمر المختار والقيود في يديه ورجليه يجرها جرا كأنه الاسد الذي انقض على حية رقطاء فأمسك بها واخذ يسحب بها على الارض وهكذا كان عمر المختار في قيده فهو أسد وسيبقى كذلك حتى في أسره وموته.

٢٧ ـ ورغم كبر سنه الذي ناهز التسعين عاما الا انه لم يضعف ولم يذل للعدو وبالرغم من ألم القيد الذي احكم على ساقيه إلا أنه بقي شامخا وصامدا في وجه المستعمر.

٢٨ ـ تسعون عاما عاشها المجاهد الكبير وهو يقاتل العدو ويدفع الضيم عن دينه ونفسه واهله لو عاشها جبل وألقت بأثقالها عليه لناء الجبل من شدتها وكثرة أهوالها وما مر فيها من الغزوات والحروب والكر والفر الذي مارسه المجاهد الكبير ضد العدو، ولنزلت قمة ذلك الجبل الشامخة تعبا من تلك الشدائد والأهوال التي عاشتها تلك السنوات التسعين، وبالرغم من ان الجبل ينؤ بهذه السنين ومصائبها وأحداثها إلا ان المجاهد الاكبر تغلب عليها بصبره الطويل وايمانه العميق وشجاعته النادرة.

٢٩ + ٣٠ ـ ولقد اعمى الحقد والظلم والتسلط عيون القاضي عن هذا الشيخ الكبير فلم يرحم كبره ولا سنه فهكذا المستعمر الحاقد لا قيمة عنده لاي خلق او ضمير بالرغم من ادعاء هؤلاء انهم من القادة النبلاء ومن الفرسان الاشراف غير ان ممارساتهم

ضد الشعوب تثبت عكس ادعاءاتهم تلك فهم عنصريون وحاقدون لا يقيمون وزنا لكل المعاني الانسانية التي كثيرا ما يتشدقون بها امام الناس.

هذا بالرغم من ان السن الكبيره عادة ما تثير الرحمة والشفقة في النفس الانسانية وتبعثها على مراعاة الشيخوخة هذا اذا كانت تلك النفس مهذبة وشريفة قد ربيت على الاخلاق الحميدة والصفات النبيلة وورثت من آبائها وأجدادها شيئا من الخلق الرفيع والقيم الاصيلة، اما هؤلاء الطليان فقد تجردوا من كل تلك القيم والاخلاق والتربية فلم يرحموا الشيخ المسن ودفعهم الحقد الأعمى الى اعدامه شنقا بعد محاكمة صورية شكلية جرت في «بنغازي» سنة ١٩٣١م.

٣١ ـ يتابع الشاعر وصف لحظة اعدام شيخ المجاهدين عمر المختار عندما دفع به جنود العدو الايطالي الى المشنقة، وكان هذا الشيخ كثيرا ما غلبهم وهزمهم في الحروب والمواقع المتعددة في الصحراء الليبية الشاسعة وكان كثيرا ما يشارك المصابين جراحهم فيواسيهم ويضمد جراحهم ويخفف عنهم مصابهم كما انه كثيرا ما كان يعمل على اطلاق سراح الاسرى ويعاملهم معاملة انسانية حسنة «الشاعر هنا يقارن بين معاملة المستعمرين للأسرى بشكل خاص وللانسان بشكل عام من جهة وبين معاملة عمر المختار لهم من جهة اخرى فيبين الفرق الشاسع بينهما».

٣٢ ـ ٣٤ ـ ثم يضيف قائلا في ذكر صفات الشهيد، لقد كان رحمه الله يشارك اخوانه المجاهدين ما عنده من سلاح فلا يؤثر نفسه بشيء وكيف لمجاهد مثله ان يفعل ذلك وهو الذي يصْدُق العهد مع عدوه فلا يخون ولا يغدر بل يشارك عدوه طعامه وشرابه اذا ما استأمنه او عاهده فتلك هي اخلاق المسلمين في الجهاد وتلك هي اخلاق الفروسية التي تنكر لها المستعمر الايطالي فلم يراعوا تلك الاخلاق عندما حكموا على الشيخ الكبير بالاعدام شنقا وكان الأولى بهذا القائد البطل ان يموت في ساحات القتال بين السيوف والرماح وبين الطعن والكر والفر لا أن يموت هذه الميتة المهينة التي لا تليق ببطل شجاع وقائد مغوار عرفه الايطاليون وخبروه أكثر من غيرهم.

٣٥ ـ ثم يعود مرة اخرى لينعى على القيم الانسانية، والاعراف والتقاليد التي يتشدق بها الغربيون حول احترامهم لحقوق الانسان، ويرى ان يد هؤلاء قد امعنت في هدم صرح الحضارة الانسانية القائمة على اساس الحق والعدل والمساواة واحترام حقوق الغير فالشاعر هنا متشائم من مستقبل الانسانية على يد هؤلاء المستعمرين المدعين النبل والفروسية.

٣٦ ـ ثم يضيف الشاعر منتقدا حضارة هؤلاء المستعمرين، الغاصبين فيقول ان حضارة هؤلاء واعرافهم الخاصة بهم قد أباحت للناس التمتع بحقوقهم في أوطانهم والعيش بحرية وسلام شريطة قبول هؤلاء بالظلم والاستعباد اما اذا رفضوه وحاربوه وثاروا

ضده فلا أوطان لهم ولا يملكون الحرية على ارضهم فالمستعمر لا يقبل على الارض التي استعمرها الا الناس الاذلاء والمستسلمين اما أباة الضيم الذين يرفضون الظلم والاستعباد ويحاربونه فهؤلاء محاربون ويجب التخلص منهم في نظر المستعمر لأنهم يشكلون العقبة الكأداء في وجه نفوذ المستعمر واطماعه وجشعه الاستعماري.

٣٧+٣٨ ـ ثم يتحول الشاعر بعد فضح دعاوي التحضر والتقدم والانسانية التي يدعيها المستعمرون ـ ينتقل ليخاطب الشعب العربي عامة والليبي خاصة ولذلك نراه يحث الشعب الليبي ثم يستفهم متعجبا ومنكرا قائلا: هل المصائب الكبيرة التي أنزلها المستعمر بك قد اغلقت فمك فلم تعد قادرا على الحديث وفضح أساليبه؟؟ أم أن أذنيك لم تعد تسمع ما يقول المستعمر عنك وما يتهمك به من التخلف والضعف والجهل؟؟.

٣٩ ـ ثم يستطرد قائلا مخاطبا الشعب الليبي لئن ذهب الزعيم البطل فانك انت الذي انجبته وبامكانك ان تنجب غيره من الابطال والمجاهدين فالأصل هو الشعب الواعي والمنجب للمجاهدين والقواد الابطال فلا زلت موجودا وبامكانك ان تعطي المزيد فما عليك الا ان تحسن اختيار وتربية الرجال اللذين سيقودون الثورة ضد المستعمر ويكملوا المشوار الذي بدأه عمر المختار حتى يحققوا الاهداف النبيلة التي قضى نحبه من أجلها وفي سبيلها.

٤٠ ـ وعليك أيها الشعب أن تعفي الشيوخ من خوض المعارك ومقارعة المستعمر وأن تعتمد على الجيل الجديد فتحسن تربيته وتعليمه وتوعيته كي يتسلم راية الكفاح والنضال ويحقق الأهداف السامية التي استشهد الشيوخ من أجلها.

الدراسة الفنيـة:ـ

١ ـ عرف من شوقي انه شاعر مجدد ومقلد في آن واحد وقد قال فيه احمد هيكل بأنه «زعيم المدرسة البيانية المحافظة» ورغم هذا الاهتمام بالبيان والبديع فان ذلك لم يكن على حساب المعنى ولم يكن متكلفا.

٢ ـ كما اهتم شوقي بموضوع الصياغة الفنية والحرص الشديد على النغم الموسيقي ونصاعة الاسلوب وكل ما يتصل بالاسلوب وما يمت الى البيان العربي بصلة وقد ساعده على النجاح في هذا العمل قدرته الفائقة على اتقان اللغة وتمكنه منها تمكنا عجيبا. وقد اسعفته في ذلك مطالعاته الكثيرة وثقافته الواسعة.

٣ ـ كان شوقي يكثر في قصيدته من الموازنات المتنوعة والمقابلة بين الجمل والعبارات في القصيدة وما يترتب على ذلك من الطباق ومراعاة النظير والصور الفنية الكثيرة والمتقابلة.

٤ ـ استغل الشاعر ثقافته في اختيار الفاظه ومعانيه فجاءت عربية فصيحة بعيدة عن الغرابة والتعقيد والابتزال ومخالفة مقاييس الفصاحة العربية مع حرصه الشديد على

اختيار الالفاظ ذات الموسيقية الواضحة ولذلك فقد جاءت معانيه واضحة متسلسلة ومنسجمة مع موضوعه الى حد بعيد.

كما جاءت الفاظه مستوحاة من تراث العرب وتاريخهم النضالي الطويل خاصة ما يتصل بأبطال الاسلام الاول وغيرهم من ابطال العرب في الجاهلية والاسلام.

٥ ـ اما بالنسبة لعاطفة شوقي فكانت شاملة سريعة الانفعال والتأثر بما يصيب الجمهور فقد جاءت عاطفة وطنية قومية ودينية انسانية ذلك ان شوقي تميز بسعة الافق والثقافة وقد تجلت عاطفته القومية العربية في استذكاره امجاد الجاهلية والبادية والصحراء على السواء في قوله:ـ

والجاهلية من وراء قبورهم.....
بطل البداوة لم يكن يغزو على.....

كما ظهرت عاطفته الدينية «الاسلامية» في قوله:
والمسلمون على اختلاف ديارهم.....

اما العواطف الفرعية الاخرى فقد كانت عاطفة الرحمة والاشفاق على الشيخوخة المظلومة على يد المستعمر الذي لا يعرف الرحمة:
شيخ تمالك سنة لم ينفجر.....

وكذلك عاطفة الاعجاب بالشجاعة التي اظهرها البطل الشهيد، وكذلك عاطفة الاشمئزاز من المستعمر وقسوته وعدم احترامه لكل القيم والاخلاق.

شرعت حقوق الناس في اوطانهم.....

ثم هناك عاطفة الاطمئنان الى المستقبل والثقة في الشعب وقد صدرت كل هذه العواطف من واقع وحدة المصير والدم بين الشعبين العربيين في مصر وليبيا بل ووحدة العالم الاسلامي بكامله هذا بالاضافة إلى ان قضية الحرية والاستقلال كانت من الامور التي يقف الى جانبها العربي بقوة لأنها قضيته مهما تباعدت الاقطار أو اختلف الاستعمار بين مصر وليبيا هذا بالاضافة الى انهما قطران افريقيان ايضا.

وقد كان شوقي في كل تلك العواطف صادقا وصريحا بالرغم من أن هناك من يشكك في صدق عواطفه لكونه شاعر الخديوي والبلاط عامة هذا بالاضافة الى بعده عن عامة الشعب واكتفائه بحياة القصور.

٦ ـ لقد كان شوقي اكثر شعراء عصره خيالا فقد كان متسع الخيال يأتي دائما بالصور الطريفة المشرقة فقد رسم لنا المستعمرين وهم يرفعون عظام البطل الشهيد علماً في الصحراء يستحث شعب واد النيل باكمله.

كما صور لنا دم الشهيد وكأنه المنار الذي نصبه المستعمر لتقتدي به الاجيال وتترسم خطاه وتثأر لاستشهاده كما صور لنا البطل الشهيد وهو في القيد كأنه الاسد الذي يجرر حية رقطاء إلى آخر تلك الصور الطريفة التي ابتكرها خيال الشاعر الواسع.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

حـــافـــظ ابـراهيـم

«اللغة العربية تنعى حظها بين اهلها»

حافظ ابراهيم
«١٨٧١ ـ ١٩٣٢م»

حيـاتـــه:ـ

هو محمد حافظ بن ابراهيم فهمي ولد على الارجح سنة ١٨٧١ في حراقة على النيل بالقرب من قناطر ديروط بالصعيد من اب مصري صميم وام تنحدر الى اسرة تركية فكان من حسن الطالع ان يلد شاعر النيل على صفحة النيل الخالد.

كان حافظ وحيد امه وابيه توفي ابوه في ديروط وهو لا زال في سن الطفولة لم يتجاوز الرابعة من عمره فانتقلت به امه الى بيت خاله الذي تعهده بالرعاية والتربية فادخله المدرسة الخيرية ثم المدرسة القربية الابتدائية ثم تحول الى مدرسة المبتديان فالمدرسة الخديوية.

ثم ينتقل خاله الى طنطا وينتقل معه حافظ سنة ١٨٨٨ وهناك يلتقي بالشيخ عبد الوهاب النجار الذي حضر مجالسه وشارك في المطارحات الادبية والمناظرات المختلفة فيعجب به الشيخ ويقربه اليه ويبدي اعجابه بادبه وما كان يشتمل عليه من لطائف، وظرائف، وما يتمتع به من بديهة صافية ونفس طموحة. في هذه المرحلة نرى حافظا يعتمد على نفسه في الدرس والمطالعة والتثقيف وحفظ شعر الفحول وقدرا كبيرا من الامثال والنوادر والطرائف غير انه لم يمارس عملا يعيش من ورائه فيتبرم به خاله فيقرر حافظ البحث عن عمل يكسب منه رزقه فيطرق باب المحاماة حيث عمل اولا في مكتب المحامي الشيخ محمد الشيمي ثم تركه ليعمل في مكتب ابي شادي المحامي بعض الوقت ليترك هذا العمل والى الابد حيث يلتحق بعدها بالمدرسة الحربية على غرار البارودي حيث تخرج من المدرسة سنة ١٨٩١ وهو في العشرين من عمره ليعين في الحربية ثلاث سنوات وبعدها الى الداخلية ثم الحربية ثانية ليسافر الى السودان مع حملة كتشنر ولكنه احيل الى الاستيداع سنة ١٨٩٩ لاتهامه بالمشاركة في ثورة السودان وبقي بلا عمل حتى سنة ١٩١١ عندما عين رئيسا للقسم الادبي بدار الكتب المصرية ليبقى فيها حتى احالته على المعاش سنة ١٩٣٢ قبل وفاته بأربعة اشهر ونصف تقريبا بعد أن حصل على رتبة البكوية ونيشان النيل من الدرجة الرابعة.

تزوج حافظ ابراهيم مرة واحدة غير ان زواجه لم يعمر اكثر من اربعة اشهر فقط حتى افترق الزوجان دون ذرية ثم يلازم حافظ بيت خاله الى ان يوافيه اجله بالزيتون من ضواحي القاهرة سنة ١٩٣٢م.

المؤثرات في شعره:

١ ـ النوائب والشدائد التي حلت به وذلك ابتداء من وفاة والده وهو لا زال في الرابعة من عمره ثم انتقاله للعيش في بيت خاله الذي كان برما به لعدم عمله وسكونه وركونه للمطالعة والدرس فقط، وكذلك فشله في المحاماة وما تبعه من فشل وما أصيب به في عمله في الحربية الذي انتهى به الى الاستيداع ثم الاحالة على المعاش. كل هذه الاحداث التي نزلت به كان لها من التأثير القوي والشديد على نفسيته وعاطفته ما انعكس في شعره بشكل واضح حزنا والما وشكوى من الزمان والايام والناس بشكل عام والتبرم من كل شيء ولعل ذلك يفسر لنا لجوء الشاعر الى النكتة وخفة الروح والظل ليخفف من مأساته وآلامه ويروح عن نفسه المكلومة فكان فكها بارعا في اختراع النكتة الامر الذي جعله زينة المجالس وبهجة النفوس غير ان تلك النكتة التي اشتهر بها لم تشع في شعره ولم نلاحظها في قصائده ذلك ان النكتة لم تكن الا حيلة لجأ اليها الشاعر ليخفف ويروح عن نفسه فقط دون ان تتمكن منه وتجري على لسانه وقلمه.

٢ ـ الوظائف التي عمل بها والمناصب التي وليها وتقلدها فقد كانت تلك الوظائف نعمة له ونقمة على نتاجه وادبه وشعره فكان حافظ يتخوف كثيرا من نشر شعره اللاذع الناقد خوفا على نفسه ووظيفته، وحتى ان وجدنا مثل هذا الشعر منشورا فانا نجده لينا هادئا ومتزنا فقد قال قصيدته الميمية في وزارة اسماعيل صدقي ولكنه رفض نشرها او حتى كتابتها والاحتفاظ بها وقال لمن طلب منه نشرها «اني اخاف السجن ولست احتمله».

٣ ـ ثقافته الواسعة والمتعددة الجوانب، وليس صحيحا ما تعارف عليه الكتاب من ان حافظا كان محدود الثقافة فبالرغم من انه لم يدرس الا في المدارس الابتدائية والمدرسة الحربية الا انه اكمل تلك الثقافة ووسع آفاقها من مطالعاته الشخصية وجهوده الذاتية ودراساته المستمرة لكتب الادب العربي القديم وحفظه لاشعار الفحول واطلاعه على حكمة العرب وامثالهم وبذل في ذلك جهدا اقعده عن كسب رزقه ولقمة عيشه جعل خاله برما به الى حد طرده من البيت. لقد تكون لحافظ من كل تلك المصادر الثقافية مخزون ادبي كبير مع ما تمتع به من حافظة واسعة وعقل نير وعاطفة حساسة لكل الاحداث التي تمر بها الامة.

اضف الى كل ما ذكر من مصادر ثقافته مصدرا آخر لا يقل أهمية عما سبق الا وهو مجالس كبار العلماء والادباء والمفكرين في عصره التي كان يغشاها باستمرار فيستمع ويحفظ ويشارك ويناقش ومن اشهر تلك المجالس والحلقات مجلس الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين ومصطفى كامل وغيرهم كثير من كبار العلماء الذين شكلت مجالسهم مدرسة فكرية وادبية وعلمية من ارقى المدارس لما يطرح فيها من المسائل العلمية والادبية والاجتماعية والمشاكل السياسية مع كل ما يقترح لها من الحلول والاجوبة، اضف الى ذلك منتدياته الادبية مع خليل مطران وغيره وما كان يشيع فيها من الفكاهات والنكات الادبية الطريفة.

٤ ـ كان لحافظ ابراهيم المام باللغة الفرنسية ولذلك نراه يترجم عنها «البؤساء» لفيكتور هوجو، وكذلك بعض المقاطع لجان جاك روسو غير ان هذا العامل لم يكن له من التأثير القوي على شعره وشاعريته ما للعوامل السابقة.

كان حافظ معجبا بالبارودي يعتبره مثله الاعلى ولذلك نراه يمدحه كثيرا ويثني عليه في كل مناسبة ويرسم لنفسه صورة على غراره ويتمنى ان يكون مثله فارس سيف وقلم في آن واحد. غير انه كما راينا لم يفلح في ان يصبح فارس سيف بل احيل الى الاستيداع ثم الى المعاش واعلى رتبة وصل اليها هي رتبة ملازم اول بينما نراه ينجح في الشق الثاني من فروسيته وهي فروسية القلم.

انظر اليه يمدح البارودي قائلا:

امير القوافي ان لي مستهامة بمدح ومن لي فيه ان ابلغ المدى

ولذلك يسير على نهج البارودي في تخير الالفاظ والحفظ لفحول الشعراء والسير على نهجهم في تجويد الاسلوب والنظم ولذلك كان حافظ يرى نفسه شاعر العصر بعد شوقي.

حافظ والتجديد:

ومع بداية النهضة الحديثة وهجوم المحدثين والمجددين على الشعر التقليدي وتعرض شوقي وحافظ لهذه الحملة الشرسة ومهاجمة اشعارهما وانتقادهما انتقادا مرا لسيرهما في اشعارهما وفق النهج التقليدي القديم، نجد ان حافظا يجنح الى التجديد في موضوعات شعره واغراضه على حد سواء فنراه هنا ينظم في موضوعات عصره ويعبر عن اماني شعبه وتطلعات امته في الحرية والاستقلال وقد نجح في ذلك ايما نجاح بما رزق من حس مرهف وعاطفة وطنية حساسة وقوية فكان وبحق شاعر الوطنية وشاعر الشعب دون منازع وشاعر النيل الخالد.

انظر اليه يتهكم ويسخر من الأمة التي خلدت الى الراحة واستكانت وسلمت امرها الى الاجنبي المستعمر واستنامت على الذل:

واذا سئلت عن الكنانة قل لهم هي امة تلهو وشعب يلعب

حتى اذا صحت الامة وبدأت تنفض عن نفسها غبار الماضي وتلقي عن كاهلها اعباء الجهل والأمية والمرض وتبدأ الامة تحث الخطا نحو الحرية والاستقلال وطرد الاجنبي الدخيل نراه متفائلا فرحا انظر الى فرحته هذه وهو يخاطب سعد زغلول.

فاوض فخلفك أمة قد اقسمت الا تنام وفي البلاد دخيل
النسر يطمع ان يصيد بأرضنا سنريه كيف يصيده زغلول

وهكذا نرى الشاعر يتردد في شعره بين التشاؤم والتفاؤل وبين الغضب والفرح كما تتردد الامة بين القوة والضعف حينا والتواكل والعمل حينا آخر والصحوة والغفوة مرة ثالثة. وعليه فقد كان حافظ يمثل في شعره أمته وعصره خير تمثيل حتى قال فيه طه حسين:

«... لا اعرف بين شعراء هذه الايام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ.....».

فنراه يرصد الحوادث السياسية والاجتماعية ويصوغها شعرا قويا ومؤثرا يذكي به النفوس، ويشحذ به الهمم ويقوي به العزائم داعيا المصريين الى الثورة والانجليز الى الرحيل عن ارض العروبة ورفع المظالم عن اهلها. كما حارب حافظ ابراهيم الطبقية وهاجم المستغلين والاغنياء المترفين وذكرهم بواجبهم تجاه الغالبية الفقيرة المحرومة من كل مقومات العيش الكريم:

ايها الرافلون في حلل الوشي يجرون للذيول افتخارا
ان فوق العراء قوما جياعا يتوارون ذلة وانكسارا

كما هاجم الانجليز وتصرفاتهم الشائنة اثر حادثة دنشواي المشؤومة(١)

كان حافظ ابراهيم يدعو الى التجديد ويقف الى جانب دعاته حيث وقف الى جانب الجامعة المصرية والى جانب المرأة والى جانب اللغة العربية التي هوجمت واتهمت بالقصور والتخلف فيبين محاسنها ومزاياها وقدرتها على استيعاب علوم العصر ومسايرة ركب التقدم والتطور فيدعو للاهتمام بها وصيانتها والدفاع عنها وتنميتها.

كما دعا حافظ ابراهيم الى الوحدة العربية والاسلامية والشرق بأكمله فنراه يدافع عن الخلافة الاسلامية ويقف الى جانبها حتى في اعصب اوقاتها فقد كان حبه لدينه ووطنه لا يدانيه حب في غير تعصب ولا عنصرية فهو يدعو الى الوحدة الوطنية والتماسك في وجه الاعداء كما جدد حافظ ايضا في الرثاء عندما لجأ الى الرثاء الجماعي وعرف الرثاء بشكله العام بحيث نقله من دائرته الفردية الضيقة الى دائرة اكثر اتساعا واشد عمقا، فعندما يرثي مصطفى كامل فانما هو رثاء الامة بكاملها فموته يعتبر كارثة وطنية وليس مسألة فردية عابرة.

وحافظ بالاضافة الى كونه عربيا مسلما ووطنيا شرقيا ومصريا الا انه كان انسانيا فهو يهب لنصرة الانسان المظلوم اينما كان ويقف الى جانبه في محنته كما في موقفه من زلزال مسينا الايطالي وتغنيه بما وصلت اليه امريكا من المنعة والتقدم.

«ويتسع افق حافظ في كثير من الاحيان فينظر الى الوحدة العربية، والوحدة الاسلامية..... وكم شعر في وحدة الشرق وتعاونه... داعيا الى ائتلاف الشعوب»(٢).

(١) موجز الحادثة: ان الضباط الانجليز خرجوا لصيد الحمام فاصابوا بعض الاهالي فحصل صدام بين الطرفين قتل على اثره بعض الضباط الانجليز فما كان من اللورد كرومر الا ان قضى باعدام اربعة من المصريين وجلد ثمانية منهم على مرأى ومسمع من الناس فكان التنديد والتهديد. ودنشواي بلديه باقليم المنوفية.

(٢) احمد امين مقدمة الديوان.

آثـــاره:

تميز حافظ ابراهيم بنزقه وملله السريع وتقلبه الدائم فهو لا يثبت على حال ولا يتبع منهجا منظما ومحددا في عمله أو دراسته او نظمه.

لقد كان حافظ ابراهيم قلق النفس لا يعرف الاستقرار لا صبر لديه ولا احتمال عنده للمشاق والصعاب ويظهر ذلك في كثرة تنقله من مكان الى آخر ومن وظيفه الى اخرى.

وقد شملت الفوضى مختلف جوانب حياته حتى زواجه وشعره وأدبه فقلما عني بجمع شعره وتدوينه ولولا الصحف والمجلات التي نشرت شعره لضاع معظمه واليك ابرز الاثار التي تركها لنا شاعر النيل العظيم حافظ ابراهيم:

١ ـ ديوانه في ثلاثة اجزاء ونظرا لوجود اشعار كثيرة لم تشتمل عليها هذه الاجزاء فقد انتدبت وزارة المعارف المصرية احمد امين لاكمال هذا النقص وتدارك ذاك الخلل فقام هو واحمد الزين وابراهيم الابياري بجمع وضبط وتحقيق اشعاره وخرج الديوان الأول كاملا متكاملا سنة ١٩٣٧ وفي سنة ١٩٦٩ اعيد طبعه في جزأين اشتمل الاول على شعر المدائح والتهاني والأهاجي والاخوانيات والوصف والخمريات والغزليات والاجتماعيات، أما الجزء الثاني فقد ضم شعره في الشكوى والرثاء والسياسة.

٢ ـ ليالي سطيح: كتاب نثري وضعه الشاعر بين عامي ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ وهو عبارة عن مقدمة نقدية اجتماعية سياسية.

٣ ـ البؤساء: وهو مترجأم بتصرف عن الادب الفرنسي لفكتور هوجو.

٤ ـ الموجز في الاقتصاد السياسي: وقد ترجمه عن الفرنسية مع خليل مطران وهو للكاتب الفرنسي لوري بوليو.

٥ ـ التربية الاولية: وهو كتيب وضعه بتكليف من وزارة المعارف.

المناسبـــة:ـ

مناسبة هذه القصيدة موضوع يطول الحديث فيه وعنه ولذلك رأيت ان اقدم له بهذا التقديم كي اضع القارىء في الصورة الصحيحة التي كانت تتعرض لها العربية في عصر حافظ ابراهيم الامر الذي دفعه لنظم هذه القصيدة، فمع بداية القرن التاسع عشر ومنذ بدأ العالم العربي يحصل على استقلاله ويحقق حريته حتى بدأ يصحو من غفوته التي طالت زمنا طويلا، وبدأ يتصل بالغرب فهاله ما رآه من تقدم ورقي وحضارة ومدنية، وعليه فقد بدأت طائفة من رجاله ـ وبخاصة هؤلاء الذين ذهبوا في بعثات الى اوروبا ـ تعزو سبب ضعف الامة، وعدم مسايرتها لركب الامم المتقدمة الى اللغة العربية وضعفها وجمودها وتقصيرها عن مسايرة ركب المدنية الحديثة، وعجزها عن استيعاب علوم العصر ومتغيراتها اليومية.

وقد وردت هذه التهمة اصلا على لسان نفر من المستشرقين والعلماء اللذين رافقوا حملاتهم الاستعمارية على بلاد العروبة وكان من ابرز هؤلاء الداعين الى احلال العامية مكان الفصحى المهندس الانجليزي «ولكوكس» الذي ارجع سبب اخفاق المصريين في ميدان الابداع والابتكار الى اعتمادهم الفصحى في الكتابة والتأليف ولذلك قام بترجمة الانجيل الى العامية كما قام بترجمة مقتطفات من مسرحيات شكسبير الى العامية ايضا.

وقد تبعه في هذه الدعوة المستشرق الانجليزي «باول» وكذلك الالماني «وليم سبيتا» و «كارل فولرز» وكذلك كل من «بوريان» و «ليندنبيرغ» و «كولان» و «ليتمان» وغيرهم كثير ممن حملوا على الفصحى وحملوها اوزارهم، ورموها بكل انواع التهم والقصور والجمود بل وجعلوها سبب محنة الامة العربية وتأخرها في مختلف الميادين.

اما في الجانب العربي الذي احتذى بالدعوات الغربية فقد كانت مجلة المقتطف عام ١٨٨١ من اوائل الداعين الى الكتابة بالعامية وايدها في ذلك كل من مارون غصن، واسكندر المعلوف واسعد داغر، في حين دعا أحمد لطفي السيد الى تمصير اللغة العربية، اما عبدالعزيز فهمي فقد دعا من جانبه الى الكتابة بالحروف اللاتينية بدل الحروف العربية كما دعا سلامه موسى الى كتابة الادب للشعب أي باللغة التي يتحدث بها ويفهمها الشعب.

اما محمد واحمد تيمور فقد كتبا الاقصوصة بالعامية، وتبعهما في هذا الصنيع توفيق الحكيم في «عودة الروح» و محمد حسين هيكل في «زينب» ولما لم تنجح القصتان اعيدت كتابتهما بالفصحى.

كما قدم سعيد عقل لديوان «جلنار» بالعامية وكذلك كتب يعقوب صنوع ورفاعة الطهطاوي بالعامية العديد من القصص والمسرحيات.

كل هذه الحملة التي تثار ضد اللغة العربية، ويتحدث الناس بها، وتدور المعارك حولها على صفحات الجرائد وفي المجلات، وفي المجالس الادبية والنوادي الفكرية وهل هي اداة صالحه للعلوم الحديثة والادب الحديث؟؟ ام هي جامدة وقاصرة لا رجاء فيها ولا نفع منها؟؟.

وسط كل هذا الزحام، وفي خضم هذه الثورة والحملات المتبادلة ينبري حافظ ابراهيم للوقوف في وجه هؤلاء الناعبين جميعا فيرد عليهم ويفند ادعاءاتهم مبينا محاسن اللغة العربية، مظهرا مزاياها داعيا المختصين الى انهاضها من سباتها، واقالتها من عثرتها، وينعى على من لم يأخذ بيدها، مؤكدا لهم في قوة ووضوح، قدرة اللغة العربية على مسايرة العصر بكل ما يشتمل عليه من علم ومدنية وتقدم دائم وذلك بما تتمتع به من خصب ونماء، وسعة ابواب، وكثرة مترادفات ومفردات شريطة ان يوجد من أهلها من ينهض بهذا العبيء ويهتم بها وينمي مفرداتها وصونها من الاندثار موردا هذه المعاني والاراء في قصيدته هذه التي نحن بصدد دراستها.

«اللغة العربية تنعى حظها بين اهلها»

١- رَجعتُ لنفسي فاتهمتُ حَصاتي ونَاديتُ قومي فاحتسبْتُ حَياتي
٢- رَمَوْني بعُقْمٍ في الشَّبابِ ولَيتَني عَقِمْتُ فلم أجزَع لقولِ عُداتي
٣- وَلَدْتُ ولَمّا لم أجد لِعَرائسي رجالاً واكْفاءً وأَدْت بَناتي
٤- وَسِعتُ كتابَ اللهِ لفظاً وغايةً وما ضقتُ عن آي به وعظاتِ
٥- فكيفَ أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ وتنسيقِ أسماءٍ لمُختَرعاتِ

الشرح اللغوي:-

١ - رجعت لنفسي: أي تأملت. والحصاة: الرأي والعقل، واحتسبت حياتي: عددتها عند الله فيما يدخر. يقول على لسان اللغة العربية: انني عدت الى نفسي وفكرت فيما آل اليه امري، فأسأت الظن بمقدرتي، وكدت اصدق ما رموني به من القصور، وناديت الناطقين بي ان ينصروني فلم اجد منهم سميعا، فادخرت حياتي عند الله.
٢ - العداة: الاعداء: يقول اتهموني بأني لا الد على حين اني في ريعان شبابي. وليتني كنت كما قالوا فلا يحزنني قولهم. وكنى بالعقم هنا عن ضيق اللغة وجمودها.
٣ - يريد «بالعرائس» الالفاظ المجلوة الحسنة. ووأد البنت: دفنها حية.. يقول ان سبب ضعف اللغة هو عجز أصحابها وضعفهم فهي لم تجد من يعتني بها وينميها ويطورها.

٤ - الآي: جمع آية. وقد كان من الادلة على قوة اللغة وسعتها وعدم عقمها وكذب ادعاء القائلين بذلك أن كتاب الله تعالى بكل ما فيه من عبر وقوانين قد وسعته العربية دون عجز أو قصور.
٥ - فكيف للغة وسعت كتاب الله تعالى أن تعجز عن استيعاب متطلبات العصر بما فيه من المخترعات المختلفة.

٦ـ انا البحرُ في أحشائه الدّرُ كامنٌ فهل سَألوا الغوّاصَ عن صَدَفاتي
٧ـ فيا وَيْحكُم ابلى وتبلى محاسني ومنكمُ وإن عَزَّ الدواءُ اساتي
٨ـ فلا تَكلوني للزّمانِ فانّني اخَافُ عليكم انْ تحينَ وفاتي
٩ـ ارى لرجالَ الغربِ عزّاً ومنعة وكَمْ عزّ اقوامٌ بعزِّ لغُاتِ
١٠ـ أتوا اهلَهُم بالمُعجزاتِ تَفنُّناً فيا لَيتَكم تاتون بِالكَلماتِ

١١ـ أيُطربُكمُ من جانب الغرب ناعبٌ يُنادي بوادي في ربيع حَياتي
١٢ـ ولو تزجرون الطيَر يوماً علمْتُمُ بما تَحتَه من عَثْرةٍ وشَتَاتِ
١٣ـ سقى الله في بطنِ الجزيرةِ اعظُماً يعز عليها أن تلينَ قناتي
١٤ـ حفظْنَ ودادي في البلى وحفظْتُه لهُنَّ بقلبٍ دائم الحسراتِ
١٥ـ وفاخرتُ اهل الغربِ والشرقِ مطرقاً حياءً بتلكَ الأعظمُ النخِّراتِ

---

٦ ـ ويقول على لسان اللغة العربية بأنها البحر الزاخر بمختلف الالفاظ والدلالات والاسماء فهل استشاروا اللغوي القدير والأديب الكبير عما يريدونه من اللغة؟.

٧ ـ الاساة: جمع الآسي، وهو الطبيب ـ عز: صعب وافقتد. فاللغة العربية تقول لأهلها يا ويحكم هل من الممكن ان اضعف وتضعف صفاتي وخصائصي التي كنت اعتز بها في الماضي في حين انتم أيها اللغويون والنحاة والادباء العلاج لي ولقصوري الذي رميت به زورا وبهتانا

٨ ـ تكلوني: تتركوني. وتحين: تحل. وتخاطب اللغة أهلها المقصرين في صيانتها والحفاظ عليها وتنميتها فتقول لهم لا تتركوني مهملا على مر الزمان لأن ذلك لو حصل سيؤدي الى وفاتي ومن ثم إلى ضعفكم وانحلالكم.

٩ ـ يقال: هو في منعة، اي في قوم يمنعونه ويحمونه. يقول الشاعر هنا بأن اللغة هي هوية الامة وشخصيتها المميز لها بين امم العالم ولذلك نرى ان الغرب قد عز وتقدم على غيره باعتزازه بلغته وتراثه وكذلك العديد من الامم التي اعتزت بلغتها فأعزتها هذه اللغة.

١٠ ـ فهؤلاء القوم الذين اعتزوا بلغتهم فارتقوا وتقدموا نتيجة لذلك وجاءوا بالعديد من المعجزات والانجازات والمخترعات، فهل لكم يا ابناء العربية ان تعتنوا بلغتكم حتى تعزوا وتتقدموا وتحفظوا كيانكم وشخصيتكم وهويتكم بين الامم الاخرى.

١١ ـ الناعب: المصوت بما هو مستكره. وربيع الحياة: ايام الشباب والفتوة. فهل تطربون يا سدنة اللغة العربية ويا أهلها الكرام على دعاوي هؤلاء المستشرقين وتلامذتهم من العرب الذين ينادون باستبدالي بلغات اخرى أو باستبدال حروفي بحروف لاتينية وأنا

لا زلت شبابا يافعا بامكاني ان اعطي المزيد والمزيد من المفردات والمصطلحات لو أحسنتم النظر، وعمقتم البصر في موادي وأبوابي المختلفة.

١٢ ـ زجر الطير: هو أن ترمي الطائر بحصاة او تصيح به، فان ولاك في طيرانه ميامنه تفاءلت به خيرا، وان ولّاك مياسره تطيرت منه، العثرة: السقوط. والشتات: التفرق. يقول: لو استنبأتم الغيب بزجر الطير، كما كان يفعل العرب، لعلمتم ما يجره دفني عليك من السقوط والانحلال.

١٣ ـ القناة: الرمح. ولينها: كناية عن الضعف. ويريد «بالأعظم»: منْ دُفن في الجزيرة من العرب الأولين. يطلب الشاعر في هذا البيت السقيا والرحمة للعرب الاولين في الجزيرة العربية ايام كان للعربية عزها ومجدها بما بذلوه من جهد في سبيل تنميتها والعناية بها.

١٤ ـ فلقد حفظت تلك ـ الاعظم ـ أي تلك الاجيال السابقة حبي للعربية واعتزازي بها ولذلك فقد حفظت لتلك الاجيال هذه الأمانة وأوفيت لها العهد بقلب كله الحسرة والألم على ما أصاب اللغة العربية على يد ابنائها.

١٥ ـ النخرات: البالية المتفتتة. ولقد فاخرت بكم معشر العرب والعربية الشرق والغرب فقد كانت العربية على مر الاجيال المثال المحتذى والرمز الامثل.

١٦ـ أرى كلَّ يومٍ بالجرائدِ مَزْلَقاً من **القَبرْ** يدنيني بغَيْر أَناةِ
١٧ـ وأسمع للكتّاب في مصَر ضجـةً فأعلم ان الصائحين نعاتي
١٨ـ أيهجُرني قَومي ـ عفا الله عنهمُ ـ إلى لغةٍ لم تتّصل برُواةِ

الشرح اللغوي

١٦ ـ المزلق: مكان الانزلاق، اي السقوط والزلل، والاناة: التأني والابطاء. ويريد وصف لغة الجرائد اذ ذاك بالضعف. يشير هنا الى ما كان يسود لغة الجرائد والصحف من الضعف والركاكة نتيجة الجمود الفكري وانتشار الجهل وسيطرة اللغة التركية، هذا الوضع المأساوي الذي انتهت اليه اللغة العربية بين أهلها يقرّبه من القبر كل يوم اكثر فأكثر من شدة الحسرة والألم والحزن والأسى على هذا الوضع المتردي للّغة العربية بين اهلها.

١٧ ـ النعاة: جمع ناع، وهو المخبر بالموت. ويشير ايضا الى تلك المعارك الأدبية التي كانت تدور بين الأدباء والكتّاب على صفحات الجرائد في ذلك الوقت بين مختلف التيارات والاتجاهات الادبية التي ينادي بعضها باستبدال اللغة العربية أو باحلال العامية مكان الفصحى أو باظهار عجز العربية عن مسايرة العصر ومتطلبات الحضارة والتقدم الى غير ذلك من هذه الدعاوي والمهاترات التي كانت دائرة بينهم ومع كل دعوى من تلك الدعاوي الهدامة كان الشاعر يشعر بدنو أجله واقتراب مصيبته فقد كان يرى في اللغة العربية نفسيته وشخصيته الأبيّة الاصيلة التي لا تقبل الضيم او الامتهان.

١٨ ـ لم تتصل بِرُواةٍ أي لم يأخذها الخلف عن السلف بطريق الرواية التي تحفظها من التغيير كما هو الشأن في العربية، ويشير الى انه يطلب العفو والمغفرة لقومه الذين هجروا اللغة على أمل أن يعودوا الى رشدهم ولغتهم الاصيلة.

١٩ سَرَتْ لوثةُ الافْرَنج فيها كما سَرَى ... لُعابُ الافاعي في مَسيلِ فُراتِ
٢٠ـ فَجاءَتْ كَثَوْبٍ ضَمَّ سَبعينَ رُقْعَةً ... مُشَكَّلَةً الالوانِ مُخْتَلفاتِ
٢١ـ فإمّا حياةٌ تَبْعثُ المَيْتَ في البلى ... وتُنبتُ في تِلكَ الرُّموسِ رُفاتي
٢٣ـ وإما مماتٌ لا قيامة بعَدَهُ ... مماتُ لعمري لم يُقَس بمماتِ
(نشرت في سنة ١٩٠٣م)

الشرح اللغوي:

١٩ ـ اللوثة (بالضم): عدم الابانة: ولعاب الافاعي: سمها. والفرات: الماء العذب. يشير الى انتشار المفردات الاجنبية في اللغة العربية على ألسنة المتفرنجين في ذلك الزمان فيصفها بالسم الزعاف الذي أصاب اللغة العربية الاصيلة والصافية كالماء العذب الفرات.

٢٠ ـ يشبه اللغة العربية بعد أن دخلتها الفاظ انجليزية وفرنسية وتركية كأنها الثوب الخلق البالي الذي امتلأ بالرقع من كل جنس ولون، فشبه العربية بالثوب وما دخلها من المفردات الاجنبية بالرقع المشكلة المختلفة والمتنوعة.

٢١ ـ الشكاة: الشكوى. يخاطب الشاعر معشر الكتاب والمهتمين باللغة قائلا لهم: إن رجائي بكم كبير واملي بكم اكبر ان تنصروا لغتكم وتصونوا هويتكم وتحافظوا على شخصيتكم بين الامم الاخرى خاصة وانني قد اوضحت لكم شكواي هذه حول واقع اللغة العربية ومكانتها المتدهورة بينكم.

٢٢+٢٣ ـ تبعث الميت: تحييه. والرموس: القبور، الواحد رمس. والرفات: كل ما تكسر وبلي، يريد ما بقي من الجسد بعد الموت. فاما تعيشوا حياة كريمة وشريفة تبعث اللغة العربية قوية عزيزة، وتوقظها من سباتها العميق والطويل، فان لم تقوموا بهذا العمل العظيم ـ الذي سيخلده لكم التاريخ لكم كل من يأتي بعدكم وإلا فستكون نهايتكم وموتكم الذي لا يمكن ان تقوم لكم ولشعوبكم قيامة بعده ابدا وهذا الموت لن يكون كالموت العادي للانسان بل أنه موت شخصيته وضياع هويته رغم كونه حيا.

الدراسة الفنية:ـ

١ ـ ان ابرز ما ميز نفسية الشاعر حافظ ابراهيم، قوة الحس ودقته، وصفاء الطبع واصالته، واعتدال المزاج وبساطته، ولذلك كان وصف طه حسين له بقوله «... لا اعرف بين شعراء

هذه الايام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ..».

وهذا يبرز لنا بوضوح أن الفاظ الشاعر ومعانيه واسلوبه كانت جميعها تتصف بالبساطة والسهولة والقرب مع الابتعاد كثيرا عن التعقيد والتكلف او التصنع لانه شاعر الشعب ويكتب بلسانه ويعبر عن آماله والامة بحيث يتناول قضايا الناس صغيرها وكبيرها بألفاظ مفهومة واساليب سهلة ومعان بسيطة وقريبة يفهمها العامة والخاصة على السواء.

ولذلك جاء شعره صورة واضحة وصادقة لبيئته وعصره، وسجلا دقيقا ونابضا وصادقا لاحداث زمانه.

٢ ـ جدد حافظ ابراهيم في موضوعاته واغراضه الشعرية فالموضوع الذي طرقه في هذه القصيدة كان من الجدة والطرافة بحيث يندر ان نجد من طرقه قبل حافظ ابراهيم من شعراء العربية وان كان حافظ ابراهيم قد جدد في موضوعاته واغراضه فاننا لم نجده مجددا في المعاني وابتكارها ولا في البحور الشعرية واوزانها ولا في الاسلوب وبيانه بل جاء في كل ذلك مقلدا محافظا.

٣ ـ اشتهر حافظ ابراهيم في شعره بالمزج بين شعره الوطني والاجتماعي والسياسي ولذلك نراه في قصيدته هذه يتناول قضية قومية ووطنية وسياسية ودينية في آن واحد وذلك عندما يتعرض من خلالها الى المستعمرين والمستشرقين وتلامذتهم من العرب حول اللغة العربية وقصورها وجمودها وضعفها وعدم ملاءمتها لروح العصر وعدم وفائها لمتطلباته والدعوة الى استبدالها والقضاء عليها وما ينتج عن هذه الدعاوي الزائفة والمشبوهة فيما لو قدر لها ان تنفذ من تدمير للشخصية العربية والاسلامية على حد سواء والتنكر لميراث الاجداد وامانة التاريخ.

ولذلك نلمح في هذه القصيدة بوضوح تغلب الروح الوطنية والاسلامية الى جانب عقيدته الدينية القوية الراسخة فهو شديد التعلق بعروبته وشديد الاخلاص لها ولذلك يرى ان اللغة العربية هي من اشرف اللغات فهي روح الامة والمرآة الصافية التي تعكس شخصيتها فان ذلت ذل أهلها وسقطوا وان عزت عزوا وتقدموا، وان سادت سادوا.

٤ ـ تميز حافظ ابراهيم بحبه الكبير لدينة، واخلاصه لاسلامه وعروبته دون تعصب او عنصرية ولذلك نرى دفاعه عن اللغة العربية التي تمثل شخصية الامة العربية الاسلامية وهويتها.

ولذلك تتجلى هنا عاطفته الدينية والاسلامية والعربية في انصع صورها واقوى معانيها واوضح اشكالها.

٥ ـ كانت عاطفته بصفة عامة تتصف بشدة التأثر وقوة الانفعال وذلك لانها تعكس لنا نفسية شديدة الحساسية لكل ما يدور حولها من اطماع استعمارية تهدف الى تشويه

وجه العروبة بشتى السبل ومختلف الطرق، ولذلك نراه شديد الحرص على مستقبل امته يسعى دائبا لنهضتها بكل جوارحه ووجدانه، ويدافع عنها بكل ما اوتي من قوة بيانية فهو شاعر الوطن والمجتمع دون منازع.

٦ ـ لقد كان لاتصال الشاعر المباشر بالشعب والمفكر محمد عبده بشكل خاص الاثر الكبير في وجود النزعة الشعبية، والعاطفة الوطنية والدينية المتصفة بالقوة والاندفاع وهذا ما جعله يضع المنظومات في ابطال الاسلام ومنهم «عمر وعلي» كي يذكي بواسطتها روح الكفاح والثورة والتمرد والتحرر.

غير ان هذه العاطفة القوية كانت تخفي حدتها في بعض الاحيان عندما يضطر الشاعر للمجاملة او مراعاة حال ولكنه يبقى رغم كل ذلك رجل الوطنية الصادقة، والدين القويم.

٧ ـ لقد اعتبر حافظ ابراهيم وبحق شاعر العاطفة، فقد احتفل شعره عامة بعواطف شتى، وشارك الناس في مصائبهم وعبر عن الامهم وامالهم وتطلعاتهم فجاءت عواطفه في هذه القصيدة متعددة ومتنوعة ولكنها كانت جميعها حارة وقوية ومؤثرة لصدقها وبساطتها وعمومها والتصاقها بالشعب فهي في هذه القصيدة:ـ

أ ـ عاطفة الحرص الشديد على اللغة العربية والاشفاق عليها من اهلها ثم من اعدائها.

ب ـ عاطفة السخرية التهكم والاشمئزاز من هؤلاء الادعياء الذين اتهموا العربية زورا وبهتانا وقصورا فيهم وضيقا في افقهم وثقافتهم.

جـ ـ عاطفة الحب الكبير والاخلاص العميق لقومه وعروبته ودينه من خلال اعتزازه وثقته بلغته واصالتها وقوتها وعمق جذورها.

وقد عبر الشاعر عن كل هذه العواطف بأسلوب تميزه موسيقى شجية وحزينة تبعث الاسى في النفس على حاضر اللغة العربية بين اهلها، وتثير في النفس الاعتزاز والاكبار لماضي هذه الامة ورسوخ قدمها وعلو شأنها.

لقد نظر الشاعر الى اللغة العربية نظرة علمية واعية عندما اعتبرها كائنا حيا ينمو ويتطور ويزدهر بنمو المجتمع وازدهاره وقوته كما انها تضعف وتذوي بضعف هذا المجتمع وانحلاله وهكذا كانت العربية في الماضي قوية بقوة مجتمعها ودولة الاسلام، وهكذا اصبحت في الحاضر ضعيفة بضعف مجتمعها وابتعادهم عن الاسلام.

د ـ كانت عاطفة حافظ قوية فياضة وشديدة التأثير في النفس والعلوق بها، كما كانت عاطفته صحيحة وسوية لا التواء فيها ولا شذوذ كما أن عاطفته كانت عامة وليست فردية أو شخصية وقد تخير لهذه العاطفة اللفظ المناسب والأسلوب الجميل وهو ما اطلق عليه اسم «التذوق» ولذلك كان حافظ يمعن ويدقق في اختيار الفاظه لتؤثر في السامع والقارىء أشد تأثير مستعينا في ذلك بالموسيقى المناسبة للفظ والعاطفة والاسلوب على السواء فهو يوائم بين هذه الثلاث جميعها.

اما خياله فقد كان قريبا بعيدا عن الابتكار او التجديد وضعيف التصوير.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصـــل الرابـــع

«بـدر شـاكـر السـيـاب»

«انشـودة المطـر»

بدر شاكر السياب
«١٩٢٦ ـ ١٩٦٤م»

حيـــاتـــه:

ولد بدر شاكر السياب سنة ١٩٢٦ في قرية «جيكور» من اعمال البصرة وقضى طفولته المبكرة بين اشجار النخيل والمياه يرقب البواخر ويتمتع بالطبيعة الخلابة، غير ان هذه الفترة لم تدم لشاعرنا اكثر من ست سنوات بحيث تغير الحال وتبدل الى النقيض تماما فقد توفيت امه مصدر الحنان بالنسبة اليه سنة ١٩٣٢ وهو في السادسة من عمره ويذكر انه عندما كان يسأل عنها كانوا يقولون له «ستعود بعد غد» وهذا يعكس لنا ورود هذه العبارة في قصيدته انشودة المطر التي نحن بصدد دراستها.

التحق السياب في بداية حياته بالمدرسة الحكومية في قرية «باب سليمان» المجاورة لبلدته ثم انتقل الى المدرسة المحمودية في «ابي الخصيب» انتقل بعدها الى البصرة لاكمال دراسته الثانوية سنة ١٩٣٨ وقد تعرض وهو في البصرة الى حادثتين كان لهما من التأثير على حياته وشعره اعظم الاثر فقد تزوجت ابنة عمـه التي احبها في جيكور حبا كبيرا مما احدث في نفسيته شرخا وجرحا بقي ينزف مدة طويلة كما ان هناك حادثة اخرى اثرت في نفسيته ففي اخر سنة من سنوات دراسته الثانوية فجع الشاعر مرة اخرى بموت جدته مصدر الحنان بعد امه وكان ذلك سنة ١٩٤٢ ومما زاد من فاجعته ومأساته هو زواج ابيه من امرأة اخرى سنة ١٩٣٥ وانتقاله بعيدا عنه مما حرمه من اي عاطفة يلجأ اليها في خضم الاحداث التي كانت تعصف بالعراق باستثناء جده الذي تبقى له بعد موت امه وجدته وابتعاد ابيه.

وقد بدأت شاعرية السياب تتفتح في المرحلة الثانوية من دراسته واصبح الشعر يتحول عنده الى وسيلة للتعبير عن النفس الانسانية وكوامنها ثم زاد من نضوج هذه الشاعرية انتقاله الى بغداد التي كانت تعج بمختلف الانشطة الادبية والفكرية في النوادي والصحف والمجلات والمجموعات الادبية خاصة وان السياب قد التحق في بغداد بدار المعلمين ودرس الادب العربي لمدة سنتين ثم الادب الانجليزي الى ان تخرج من هذا القسم سنة ١٩٤٨ وفي هذه الاثناء وبالتحديد سنة ١٩٤٥ تقريبا التحق بالحزب الشيوعي، وقد كان قبل هذا التاريخ يؤيد روسيا ودول المحور في حربها ضد الحفاء ويبشر بالشيوعية وبقرب خلاص الفقراء والجائعين والفلاحين.

ففي عام ١٩٤٦ انتشرت المظاهرات في العراق منددة بالسياسة البريطانية في فلسطين وكان السياب ضمن الثائرين فاعتقل مع جملة من اعتقلوا عندما قمعت السلطة الحاكمة تلك المظاهرات بقوة وعنف واغلقت العديد من الصحف وقيدت الحريات والقت بالسياب وقادة المظاهرات في غياهب السجون فكانت هذه هي المرة الاولى التي ذاق فيها السياب طعم ومرارة السجن وسجلها بدقة في اشعاره.

ثم يغادر بغداد ليعود اليها بعد انتهاء الحرب سنة ١٩٥٤ للبحث عن عمل وكانت بغداد في هذه الاثناء تعيش حياة ادبية وسياسية نشطة بحيث سمح بتأسيس الاحزاب وانشاء الصحف فتأسس على اثرها حزب التحرر الوطني وكان السياب احد اعضائه البارزين كما انتخب رئيسا لاتحاد الطلبة في دار المعلمين، وعندما ثار عبدالكريم قاسم على النظام الملكي في بغداد سنة ١٩٥٨ واقام النظام الجمهوري وقف السياب الى جانب الثورة وايدها بقوة.

لم يكن السياب شيوعيا حقا ولم يكن بالرجل الذي يتوقع منه ان يكون كذلك فقد كان على خصام دائم مع العديد من الشيوعيين اضف الى ذلك انه كان قوميا وطنيا مفرط الحساسية في هذا الميدان بحيث انتهى به المطاف الى سلسلة من المقالات في مجلة الحرية البغدادية تحت عنوان «كنت شيوعيا» يهاجم فيها الشيوعية والشيوعيين هجوما عنيفا وتحمل عليهم وعلى افكارهم وتصرفاتهم، فلم يعتنق السياب الشيوعية عن قناعة فكرية بقدر ما كان اعتناقه لها ردة فعل لما اصابه في حياته من حرمان ومشقه وما اصاب قومه ووطنه العراق من ذل المستعمر وغطرسته ومكائده لقد كان السياب من الثائرين سياسيا واجتماعيا ولذلك التقى في فترة من الفترات مع الشيوعية ولكن ما لبث ان انسحب منها.

أصيب السياب في اواخر حياته بمرض عضال اقعده عن الحركة ولكنه لم يقعد فكره عن العمل والتفكير والكتابة ففي سنة ١٩٦٢ ادخل مستشفى الجامعة الامريكية ببيروت للعلاج ثم خرج منه الى الكويت ليقضي آخر ايامه بها لتعلن وفاته سنة ١٩٦٤م فينقل الى بغداد فالبصرة ليدفن هناك.

آثـــاره:

١ ـ خلف لنا السياب العديد من الدواوين جمعت في جزأين سنة ١٩٧١ اشتملت على الدواوين او القصائد التالية:

«ازهار ذابلة» سنة ١٩٤٧، «اساطير» سنة ١٩٥٠، «المومس العمياء» سنة ١٩٥٤، «الاسلحة والاطفال» سنة ١٩٥٥، «حفار القبور» «وانشودة المطر» سنة ١٩٦٠، «المعبد الغريق» سنة ١٩٦٢، «متزل الاقنان» سنة ١٩٦٣، «شناشيل ابنة الحلبي» سنة ١٩٦٤، «اقبال» سنة ١٩٦٥.

٢ ـ كما ان هناك العديد من القصائد التي لم تنشر بعد والتي عبرت عن التجربة الحياتية للشاعر بما تحويه من خلجات نفسه ونبضات وجدانه.

٣ ـ هناك العديد من المقالات التي نشرها في الصحف والمجلات والتي لم تجمع بعد.

المؤثرات في شعره:

١ ـ السياب شاعر الحرمان فقد فجع اكثر من مرة، فجع بوفاة امه وجدته مصدر الحنان الوحيد له، كما فجع بزواج ابيه وانتقاله وهو آخر ما تبقى له، كما فجع بضياع حبه الاول وعدم وفاء الحبيب وخيانته له، اضف الى ذلك كله انه فجع بوقوع بلاده وشعبه تحت نير الاستعمار الانجليزي منذ سنة ١٩٤١ ونتيجة لذلك كله نرى السياب يرفض الواقع لانه بالنسبة اليه ليس الا الالم والمرارة ـ فقد امه وجدته ـ والخيانة والموت ـ زواج ابيه ومحبوبته ـ كما انه بالنسبة اليه ليس الا زوال الحب والحنان والاطمئنان ولذلك نرى انه يحول فاجعته الفردية الى فاجعة اجتماعية عامة.

٢ ـ لقد زاد من حرمانه وضياعه انتقاله من «جيكور» البلد الهادىء المطمئن فهي عنده رمز الهدوء والطمأنينة والاصالةوالصدق بينما المدينة ـ البصرة وبغداد ـ كانت ترمز عنده للضياع والخيانة والزيف والرياء ولذلك تميز السياب هنا بجنوحه للثورة وميوله نحو التمرد والانتقام من هذا الضياع الداخلي والخارجي الذي يعيشه في وطنه فهو ميال الى التشاؤم والسوداوية والسخط دائما.

٣ ـ سجنه: فقد سجن السياب عدة مرات نتيجة ميوله السياسية واشتراكه في المظاهرات والاحتجاجات وقد ادى به ذلك الى التنقل والسفر من العراق الى الكويت وايران وهذا ما جعله يعكس هذه الاوضاع في شعره نقمة وثورة.

٤ ـ حكايات امه وابيه وجده وجدته التي كان يستمع اليها دائما منذ صغره وكذلك طبيعة جيكور وما فيها من نخيل وماء الامر الذي عكس كل تلك الذكريات في شعره رموزا وايحاءات نراها اشد وضوحا في قصيدته ـ انشودة المطر ـ.

مراحل شعره:ـ

١ ـ مر شعر السياب في ثلاث مراحل تتناسب والاطوار التي مر بها اجتماعيا وفكريا وسياسيا، ففي شبابه عاش الالم والغربة (غربة امه وجدته وابيه المتزوج، وغربته في مجتمعه الرازح تحت الاستعمار، وغربته عن قريته الى المدينة). ولذلك تميزت هذه المرحلة من شعره بالصفة الرومانسية الفردية الحالمة خاصة وانه قد اتصل بحكم معرفته للانجليزية بالرومانسية الاوروبية وبخاصة رومانسية كيتس وشيلي.

وقد كان شعره في هذه المرحلة يشكل مزيجا من التشاؤم واليأس والثورة ومناجاة الموت.

٢ ـ المرحلة الثانية: وهي مرحلة التمازج بين رومانسيته الحادة وبين الاشتراكية ذات الابعاد الاجتماعية وما بين الواقعية، وشعره في هذه المرحلة يعبر عن الالم الفردي والجماعي فنراه يهاجم الظلم والطغيان ويثور على المستبدين الجشعين الذين يعيشون على موت الاخرين كما صور ذلك في قصيدته «حفار القبور».

ولذلك صور موت امه في هذه الفترة بأنه موت الاخرين وان خلاص الشاعر هو خلاص الاخرين. فهنا خرج الشاعر من الفردية الذاتية الى الجماعية العامة.

٣ ـ المرحلة الثالثة: هي مرحلة التحليل العميق لامراض المجتمع وقد سماها ـ الواقعية الجديدة ـ ونراه يتجه في هذه المرحلة اتجاها قوميا عربيا بحيث يترك الحزب الشيوعي ويصور ما يعانيه مجتمعه من الالام ويحلم له بمستقبل زاهر تحل فيه الحرية محل الاستعمار والنور محل الجهل والتقدم محل التخلف والجمود.

لقد اكثر السياب في المرحلتين الاخيرتين من شعره من استعمال الرمز والاسطورة ملتزما بقضايا امته الكبرى. كما تأثر السياب في شعره بعمالقة الشعر العربي الثلاثة كما سماهم وهم ـ المتنبي والجاحظ وابو العلاء ـ.

١ ـ أُنشودةُ المطـر

عَيْناك غَابَتَا نَخيلٍ سَاعةَ السَّحَرْ،
أَوْ شُرْفَتَان رَاحَ يَنْأى عَنْهُمَا القَمَرْ،
عَيْناك حِينَ تَبْسمَانِ تُورِقُ الكُرُومْ،
وتَرْقُصُ الأضْوَاءُ... كالأقْمَار في نَهَرْ
يَرُجُّهُ المِجْذَافُ وَهْناً سَاعَةَ السَّحَرْ
كأنَّما تَنْبضُ في غَوْرَيْهِمَا، النُّجُومْ...

★★★

وتَغْرقَانِ في ضَبَابٍ مِنْ أسى شَفيفْ،
كَالْبَحْرِ سَرَّحَ اليَدَيْنِ فَوْقَهُ المَسَاء،
دفءُ الشتاءِ فيه وارتعَاشة الخريف
والمَوْتُ، والميلادُ، والظلامُ والضِّيَاء،
فَتستفيقُ مِلء رُوحي، رعْشَةُ البُكَاء،
ونَشْوَةٌ وَحشيَّةٌ تُعَانِقُ السَّمَاء،
كَنشوَةِ الطِّفْلِ إذَا خَافَ مِنَ القَمَرْ!

★★★

كَأنَّ «أقوَاسَ السَّحَاب» تَشْربُ الغُيُومْ،
وقَطْرَةً فَقَطْرَةً تَذُوبُ في المطَرْ...
وكَرْكَرَ الأطْفَالُ في عَرَائِشِ الكُرومْ،
وَدَغْدَغَتْ صَمْتَ العَصَافِيرِ عَلَى الشَّجَرْ
أُنْشُودةُ المطَرْ...
مَطَرْ...
مَطَرْ...
مَطَرْ...
تثاءبَ المَسَاءُ، والغُيُومُ مَا تَزَالْ
تَسحُّ اما تسحُّ مِنْ دُمُوعِهَا الثَّقَالْ
كأنَّ طفْلاً بَاتَ يَهْذِي قَبْلَ انْ يَنَامْ:
بأنَّ أُمَّهُ ـ الَّتي افَاقَ مُنذُ عامْ
فَلَمْ يَجِدْهَا، ثُمَّ حِينَ لَجَّ في السُّؤالْ
قَالُوا لَهُ: «بَعْدَ غَدٍ تَعُودْ..» ـ

لَا بُدَّ انْ تَوَدْ
وإنْ تَهامَسَ الرِّفاقُ انَّها هُناكْ
في جَانِبِ التّلِ تَنَامُ نَوْمَةَ اللُّحُودْ،
تَسفُّ مِنْ تُرابِهَا، وتَشْربُ المَطَرْ،
كَانَّ صَيّاداً حَزِيناً يَجْمَعُ الشِّبَاكْ
ويَلْعَنُ المِيَاهَ والقَدَرْ،
ويَنْثُرُ الغِنَاءَ حَيْثُ يَافُلُ القَمَرْ
مَطَرْ..
مَطَرْ..
اتَعْلَمِينَ ايَّ حُزْنٍ يَبْعَثُ المَطَرْ؟
وكَيْفَ تَنْشِجُ المَزَارِيبُ إذَا انْهَمَرْ؟
وكَيفَ يَشْعُرُ الوحِيدُ فيه بالضَّيَاعْ؟
بلَا انْتهاء ـ كالدّم المُرَاق، كالجِياعْ،
كَالحُبّ، كالأطفَال، كالمَوْتَى ـ هُوَ المَطَرْ!
ومُقْلَتَاك بي تُطِيفَانِ مَعَ المطَرْ،
وعبر امواج الخَليج تَمسحُ البرُوقْ
سواحل العِرَاقِ بالنّجُومِ والمَحَارْ،
كأنّهَا تهَمّ بالشّرُوقْ
فيَسْحَبُ الليلُ عَلَيْهَا مِنْ دَمٍ دِثَارْ
اصيح بالخَليجِ : «يَا خَليجْ
يا وَاهِبَ اللُّؤلُؤ، والمُحَارِ، والرَّدَى»!
فيُرْجِعُ الصّدَى
كَأنَّهُ النّشيجْ:
«يَا خَليج
يا وَاهِبَ المحَارِ والرَّدَى..»

☆☆☆

اكَادُ أَسْمَعُ العراقَ يَذْخَرُ الرُّعُودْ،
ويَخْزُنُ البروقَ في السهول والجبَالْ،
حَتّى إذاً ما فَضّ عَنْهَا خَتْمَهَا الرِّجَالْ
لَمْ تَتْرُكِ الرِّيَاحُ مِنْ ثَمُودْ
في الوادِ مِنْ اثَرْ
اكادُ اسْمَعُ النخيلَ يَشْرَبُ المطَرْ
واسمع القرى تان والمهاجرين

يُصَارِعُونَ بالمجاذيفِ وبالقلوعْ،
عَوَاصِفَ الخَليجِ ، والرُّعُودَ، منْشِدِيْن:
«مَطَرْ....
مَطَرْ....
مَطَرْ....
وَفي العراق جُوعْ.
وينثر الغلالَ فيه مَوْسِمُ الحِصَادْ
لتَشْبع الغِربَانُ والجَرَادْ.
وتَطْحن الشَّوان والحجَرْ
رَحًى تَدورُ في الحُقول ... حَوْلَهَا بَشَرْ
مَطَرْ....
مَطَرْ....
مَطَرْ....
وكَمْ ذَرَفْنَا لَيْلَةَ الرّحيلِ مِنْ دُموعْ،
ثُمَّ أعتْلَلْنا ـ خَوْفَ أنْ نُلَامَ ـ بالمطَرْ..
مـطر..
مَطَرْ....
ومنذُ أنْ كُنَّا صغَاراً، كَانَتِ السَّمَاءُ
تَغْيمُ في الشّتَاءْ
ويَهْطِلُ المطَرْ،
وَكُلّ عامٍ ـ حِيْنَ يُعْشِبُ الثَّرَى ـ نَجُوعْ
مَا مَرّ عامٌ والعِراقُ لَيْسَ فيه جُوعْ
مَطَرْ....
مَطَرْ....
مطَرْ....
في كُلِّ قطـرةٍ منَ المَطَرْ
حَمْرَاءُ او صَفْراءُ منْ اجنّةِ الزَّهَرْ،
وَكُلُّ دَمْعَةٍ منَ الجياعِ والعُرَاةْ
وَكُلُّ قَطْرَةٍ تُراقُ مِنْ دَمِ العَبيدْ
فَهْيَ ابْتسَامُ في انْتظار مَبْسَمٍ جَدِيْد
أوْ حُلْمَةٌ تورَّدتْ عـلَى فَمِ الوَليد
في عَالَمِ الغَدِ الفَتِيِّ، وَاهبِ الحيَاة!

مَطَرْ...
مَطَرْ...
مَطَرْ...
سَتُشْبِعُ العِرَاقَ بالمَطَرْ...»

اصيحُ بالخَليج: «يَا خَليجْ..
يَا وَاهِبَ اللُّؤْلُؤ، والمحَارِ، والرَّدَى!»
فيَرْجِع الصَّدَى
كأنَّهُ النَّشِيجْ:
«يَا خَلِيْج
يا وَاهِبَ المحَار والرَّدَى».
وينثر الخَليجُ من هباته الكثارْ
على الرِّمال.. رغوة الأجاج والمحارْ،
وما تَبَقَّى من عظامِ بائسٍ غريقْ
من المهاجرين ظلَّ يشربُ الرَّدى

مَن لُجَّةِ الخَليجِ والقَرَارْ،
وَفي العِرَاق أَلْفُ أَفْعَى تَشْرَبُ الرَّحيقْ

من زهرةٍ يرُيُّهَا الفرات بالنَّدى
واسْمَع الصَّدى
يَرِنُّ في الخَليجْ
«مَطَرْ..
مَطَرْ..
مَطَرْ..
في كُلِّ قَطْرَةٍ منَ المَطَرْ
حَمراءُ أوْ صَفْرَاءُ مِنْ أجنَّةِ الزَّهَرْ.
وكُلُّ دَمْعَةٍ منَ الجِيَاعِ والعُرَاة
وكُلّ قَطْرَةٍ تُرَاقُ مَنْ دَمِ العَبيدْ
فَهِيَ ابْتِسَامٌ في انْتِظَارِ مَبْسمٍ جَديدْ،
أَوْ حَلْمَةٌ تَوَرَّدَتْ عَلى فَمِ الوَليدْ
في عَالَمِ الغَدِ الفَتيّ، واهِبِ الحياةْ».

★★★

ويَهْطِلُ المطَرْ..

المناسبة:

لا يوجد هناك مناسبة خاصة لهذه الانشودة وان كانت اسبابها مجتمعة تدور حول ما ابتليت به العراق وغيرها من البلاد العربية من الاستعمار الاوروبي البغيض الذي حرص على نهب خيرات الامم وتركها تئن تحت نير الجهل والتخلف والضعف والفقر، ولم يسلم العراق من هذا الشر المستطير فقد ابتلى بالاستعمار الانجليزي ذلك السرطان الذي تفشى في جسد الامة فكان الجراد وكالافاعي التي تمتص خيرات البلاد وتترك الناس عراة وجياعا لقد كان هذا الوضع المأساوي الذي انتهى اليه العراق تحت حكم المستعمرين الطغاة الباعث الاول لهذه الانشودة بالاضافة الى نفسية الشاعر المستعدة والمتحفزة للحديث عن مثل هذا الوضع فهو شاعر الحرمان كما قلنا فقد حرم صغيرا وكبيرا وهو ذو الاتجاه الاشتراكي ثانيا فليس غريبا ان يثور على هؤلاء المستغلين وان يدعوا الشعب الى التمسك بأرضه وان يزرع فيه حب الحرية والاستقلال وبذرة التمرد والثورة.

الدراسة الادبية والفنية:ـ

لا بد لنا قبل الدخول في تحليل هذه الانشودة من حديث موجز عن الشاعر بدر شاكر السياب لأن هذه الدراسة الخارجية تلقي على الانشودة بعض الاضواء تساعدنا في الدراسة الداخلية لها، لنرى مدى تأثر الشاعر في انشودته بما تعرض له من مؤثرات خارجية، وتيارات فكرية كانت سائدة في عصره.

فقد ولد شاعرنا في قرية جيكور وتلقى فيها تعليمه ثم انتقل الى بغداد لمواصلة دراسته في دور المعلمين، وقد كان لهذا الانتقال من القرية الى المدينة الاثر الكبير في نفسه، وكان مما زاد شعوره بالغربة ايضا وفاة امه وجدته وزواج أبيه.

وقد التحق السياب بالحزب الشيوعي خلال الحرب العالمية الثانية وبقي فيه مدة ثماني سنوات فاضطهد، وشرد، فأوجد هذا في نفسه الاثر الكبير، وحول فاجعته بفقد أمه من فاجعة فردية الى احساس جماعي، وفاجعة جماعية، خاصة وان العالم العربي في تلك الفترة كانت تتجاذبه تيارات الرفض والتمرد على المستعمر، وظلمه، وعلى التقاليد البالية الجامدة.

وقد وقف السياب داخل الحزب الشيوعي العراقي يناضل ضد الاستعمار والظلم مؤمنا ايمانا راسخا بقدرة الانسان على الفعل والتغيير مرتبطا بأرضه ارتباطا وثيقا فهي امه التي يحن اليها ويحلم بالعودة اليها متعلقا بها اشد التعلق حتى اكتسبت الارض عنده صفة القداسة.

وعلى هذا النحو نظم الشاعر انشودة المطر مازجا فيها بين الطبيعة والانسان من أول بيت نلمحه في انشودته:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر،
او شرفتان راح يناى عنهما القمـــر
عيناك حين تبسمان تورق الكـــروم
وتــرقص الاضـــواء.....
بلا انتهاء ـ كالدم المراق، كالجياع،
كالحب، كالاطفال، كالموتى ـ هو المطر:،
ومقلتاك بي تطفيان مع المطر

فالحب هو الوجه الثاني للأم التي يحصل الاتحاد في رحمها، كما أن الموت هو العودة الى الاتحاد ثانية ثم ميلاد، وبعث، ونشور.

ثم لنتأمل هذا الجو الطقوسي، جو الضراعة والتوسل

اصيحُ بالخليج: «يا خليج
يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردى»
فيرجع الصدى
كانه النشيج:
«يا خليج
يا واهب المحار والردى»

هذه الضراعة، وهذا التوسل للخليج لم يكن الا لأن الخليج يمنح الاتحاد حيث انه ـ اي الخليج ـ اصبح رحما للكائنات، فالمحارة هي حاضنة الحياة، وهي رمز الامومة والخليج يمنح ايضا الردى أي الموت الذي هو العودة الى الاتحاد مرة اخرى حيث يعقبه بعث ونشور وهذا يفسر مغزى النداء للخليج وارتباط الافعال به مباشرة.

هكذا يستمر الشاعر في دعوته الى الاتحاد، وعودة مواكب المهاجرين الى فردوسهم المفقود، فالصدى الذي يصدر عن الخليج هنا ليس صدى بالمعنى الحرفي بل هو رد على ظرف موضوعي يعيشه الشعب، وتعانيه الامة، وهو يعني أن ركوب الخليج لا يمنح اللؤلؤ لراكبيه ولا يعطيهم منافع مادية كما يتوهمون، وانما العودة الى الوطن والاتحاد مع الام ـ الارض هو الذي يمنحهم البعث والتحرر، والميلاد الجديد، والخلاص، لذلك جاء الصدى ـ رجوع الصوت ـ بمثابة دعوة للمهاجرين بالعودة والاتحاد، ولذلك نرى اصرار الشاعر على اسقاط اللؤلؤ من الصدى في التكرارين للفقرة.

بهذا الجو الاسطوري يعبر الشاعر عن حلم الشعب، ورغبته في الخلاص، وشوقه الى الارتباط بوطنه، والعيش فيه بحرية، لهذا كان الخليج واهبا للحياة تماما كعالم الغد الفتي، اي أن الخليج هو الغد الذي يحمل التغيير في طياته، وهو المستقبل الذي سيثبت للمهاجرين أن الهجرة لا لؤلؤ فيها وانه هو ـ اي الخليج ـ الذي سيعيد هؤلاء المهاجرين على ظهره الى فردوسهم المفقود حيث يمنح الاتحاد، ويهطل المطر، فيحصل اللقاء مع الام ـ الارض ـ ويكون بعدها الانبعاث والتحرر.

بهذا نلاحظ الامل الكبير الذي يعلقه الشاعر على المطر، ولذلك رأينا العنوان يبدأ بالمطر وتنتهي الانشودة بـ «ويهطل المطر» أي ويحصل الاتحاد ويكون التحرر والخلاص، فيكون التكرار للماء قد أدى دوره عند الشاعر، فهو العودة والاتحاد، كذلك فان جو التوسل والضراعة الذي تكرر مرتين، وتكرار كلمة مطر كنوع من اللازمة في القصيدة باكثر من عشرين مرة يوضح لنا مدى الالحاح في التعبير عن الام الشعب، ورغباته الطاغية في العودة الى الارض ـ الام ـ وشوقهم وحنينهم الى البعث والتحرر. فالتكرار هنا هو تعبير عن حلم جماعي، فجاء تكرار اللازمة مناسبا لخدمة الجو الاسطوري، وجوقة تردد هذه الرغبة وتلح في طلبها بالاضافة الى ان تكرار الفقرة:

في كل قطرة من المطر
حمراء او صفراء من اجنة الزهر
وكل دمعة من الجياع والعراة
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد

هكذا يبدو تعلق الشاعر بالارض والارتباط بها يصل عنده الى حد الاتحاد فالارض هي بيت الانسان وامتداد له فهي عنده الام التي يحن اليها والأمل الذي يصبو اليه ولذلك نراه يكثر في قصيدته من ذكر الماء لأنه صيرورة من حيث انه حركة فهو بذلك صورة لوحدة الزمن وهو أيضا الوطن الكوني او الرحم الذي يحصل فيه الاتحاد ثم منه البعث والنشور، ولذلك نرى اكثار الشاعر من ذكر الماء حيث شمل القصيدة من أولها وحتى آخرها، فالحنين إلى الأم ـ الارض ـ هو حنين الى الاتحاد أي حنين الى الموت لكنه الموت الذي يعقبه النشور والبعث، والتجدد والخلاص، انه في رأيه موت المسيح الذي في موته انتصار، وحياة جديدة، وعودة وخلاص.

لذلك نستطيع فهم لفظة ـ المطر ـ التي ترد في الانشودة دائما كنوع من اللازمة ونستطيع معها تحليل انشودة المطر على أحد المحاور التي تنتظمها وهي كما يلي:

١ ـ محور الماء: الطابع الغالب على الانشودة هو الماء فهنالك اكثر من سبعين اشارة الى الماء موزعة في القصيدة ابتداءا من عنوان الانشودة وحتى آخرها.

بالاضافة الى ان الكلمات التي تنتمي الى حقل الماء ـ يشتمل عليها او يتصل بها ـ في الانشودة تزيد على الثلاثين كلمة تتوزع في ثنايا الانشودة مثل: «دمعة، الشباك، اللؤلؤ، المحار، الخليج، يراق....».

هذا يعني ان الشاعر يضفي على كلمة ـ الماء ـ أهمية خاصة، فما هو مضمون الماء عند الشاعر؟

فالماء في العادة يعني الخصب والنماء، والازدهار، ولكنه عند الشاعر يعني غير ذلك فهو يعني عنده دعوة الى الاتحاد بالارض ـ الأم ـ وهو من ثم ميلاد جديد، وانبعاث.

لذلك نرى هذا التمازج الشديد، والاتحاد الكامل بين الماء والانسان من أول الانشودة، فالعينان غابتان، او شرفتان، وحين تبسمان تورق الكروم، وهما كالبحر يسرح اليدين، هكذا يحقق الشاعر الاتحاد بالام منذ بداية الانشودة، ولذلك نراه يستمر في تصعيد

تكرار هذه الفقرة وانتهائها بعبارة ويهطل المطر، يدل ذلك على الحاح الشاعر على ان المطر والدموع، والتضحيات لا بد إلا أن تكون نهايتها مبسم جديد، واتحاد وعودة وتحرر وخلاص.

٢ ـ محور الازدواجية: موضوع الانشودة هو ـ المطر، الماء ـ وعلى هذا جاء الماء ذو دلالة رمزية مزدوجة، فجاءت الدلالة الظاهرة لهذه الكلمة في النصف الاول من الانشودة تقريبا دلالة سلبية، فالماء يعني الغرق، والوحشة، والضياع، والوحدة، والحزن، والبكاء، وقلق الاطفال، وخوفهم على الدوام لان الماء هو الديمومة، على هذا النحو جاءت دلالة الماء في هذا القسم من الانشودة:

وتغرقان في ضباب من اسى شفيف
كالبحر سرح اليدين فوقه المساء،
الى قوله: كنشوة الطفل اذا خاف من القمر
وقوله: كان طفلا بات يهذي قبل ان ينام:

ثم لنلاحظ هذا الحوار الذي يدل على وجود طرفي صراع، ويشير الى التمزق الداخلي والضياع الذي يعيشه الشاعر لأنه يحاور الوطن ـ الام ـ التي اتحد معها فهو بذلك يحاور ذاته وبذلك يكون هذا التمزق والضياع، وعلى هذا تكون الاشارة بوضوح الى المأساة الانسانية التي يعيشها ابناء الوطن لانعدام الحرية وانعدام الاتحاد والانبعاث والنشور:

اتعلمين اي حزن يبعث المطر؟
وكيف تنشج المزاريب اذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟

بالاضافة الى ان الصور والكلمات والافعال التي وردت في هذا القسم من الانشودة جاءت شاحبة، ضعيفة، باهتة اللون تدل على الضعف والخفوت من مثل: يرجه المجذاف، تثاءب الماء، بات يهذي، وهُناً ساعة السحر...»
الى ان يقول:
كان صيادا حزينا يجمع الشباك
ويلعن المياه والقدر

فهنا تظهر ثورته وغضبه على الماء الذي فرق بين الطفل وامه اي بين الانسان والارض وما نتج عن ذلك التفريق من ضياع، ووحدة، وحزن، وبكاء، وهذيان من جانب الطفل الانسان، فالماء هنا عنصر تفريق:

واسمع القرى تئن، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقلوع،
عواصف الخليج، والرعـــود

فهو هنا يقول «واسمع» اي سماعا حقيقيا لا لبس فيه، راسما صورة المهاجزين فوق الماء من اجل اللؤلؤ الموعود وهروبا من الظلم والعنت، وانعدام الاتحاد مع الأم - الارض - وانعدام الحرية والخلاص.

واذا ما انتقلنا الى النصف الثاني من الانشودة نجد ان صورة الماء بدأت تتحول الى الدلالة الايجابية، فالماء في هذا القسم، واهب المحار - الامومة - والاتحاد وواهب الردى أي اتحاد ثم ميلاد وبعث، وهنا تبدأ الرعود، والبروق، والرياح، والرجال وكلها مظاهر قوية تستطيع الفعل، والتغيير، وتتأهب للقضاء على ثمود، وتبدأ بوادر الشروق تلوح في الافق:

أكاد اسمع العراق يذخر الرعود
الى قوله: لم تترك الرياح من ثمود
في الواد من اثر

كما ان الدموع والحزن والبكاء في هذا القسم لم يكن سببه المطر وانما كان سببه الرحيل عن القرية، عن الارض، الأم حيث كان الحب والاتحاد، وكان النماء والخصب، وبذلك يكون الماء هنا هو رمز الاتحاد والعودة والنشور بسبب القوة التي تظهر في هذا القسم، رعود، بروق، رياح، رجال، وتصبح تباشير الخلاص قد لاحت في الافق وأوشكت على الظهور، معلنة مقدم عصر جديد من الحرية، والخلاص. في كل قطرة من المطر. الى قوله:

فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد

وتكرار هذه الفقرة في نهاية الانشودة، وانتهائها بعبارة «ويهطل المطر» دليل على الدور الايجابي الذي بدأ يلعبه المطر في هذا القسم من الانشودة، وهو دور الخلاص، والعودة والاتحاد، ولهذا جاءت الكلمات المنتمية الى حقل الماء في هذا القسم ضعف ما ورد في القسم الاول عندما كان دور الماء سلبيا.

وما ان تظهر بوادر القوة، والقدرة على تغيير الواقع المؤلم الى غد مشرق حتى نرى ان رغبة الشاعر في التغيير، والحلم في مستقبل مشرق، جاءت متدفقة عارمة، فعالم الغد الفتي

هو الذي سيهب الحياة للانسان، وفيه سيحصل الاتحاد، وبه سيكون الخلاص، فجاء تصويره للمستقبل بأنه مشرق حيث القضاء على الظلم وانتظار مبسم جديد.

ولعل فقدان الامل في التغيير قد تغلب على الشاعر في القسم الاول من الانشودة، ولذلك نراه هنا يائسا لا يرى في الماء او الانسان اي قوة ولا أي قدرة على التغيير، ولكن ما ان يكبر الانسان في انشودته من طفل الى فتى، الى رجل، ويتطور الماء من دوره السلبي المساعد على الهجرة والغرق، وباعث الحزن، والضياع، والوحدة، الى رعود، وبروق ورياح، وبدايات شروق حتى رأينا الشاعر ينبعث الامل في نفسه فيكون عالم الغد الفتي واهبا للحياة تماما كما هو الخليج ـ الماء ـ، وتصبح كل قطرة من الماء تنبيء بمبسم جديد مما يدفع الشاعر الى مناداة الماء لكي يعيد المهاجرين الى فردوسهم، ونرى المرة الاولى والوحيدة التي ذكر الشاعر فيها انه سمع الصدى بأذنه دون شك يرن في الخليج مطر، مطر، مطر، معلنا بذلك ان التغيير قد بدأ وأن الحلم على وشك التحقق، وأن الحنين والرغبة عند المظلومين، والجياع، والعبيد في العودة، والخلاص، والحرية قد بدأت.

وقد ورد هذا التأكيد بالسماع مرة واحدة قبل هذه المرة في قوله:

واسمع القرى تئن، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف وبالقـــوع،

فالتأكيد هنا جاء لبيان ان الظلم الذي وقع بالقرى ـ بالطفولة الانسانية، والحرية، والحب ـ هو حقيقي حتى ان جموع المهاجرين قد بدأت بالرحيل ـ وهنا يكون الانفصال القسري بين الام وطفلها، بين الانسان والارض، وهو انفصال جماعي، فهي مأساة انسانية جماعية شاملة، ولذلك كان لا بد من التغيير ليعود هؤلاء الى فردوسهم ويحصل الاتحاد مرة اخرى، فما كان من الشاعر الا أن أعلن بالتأكيد ان التغيير قد بدأ، وان الرغبة في الاتحاد، والحلم في العودة الى الفردوس المفقود قد لاح في الافق وعلى وشك التحقق، ولذلك جاء تأكيده بسماع الصدى وهو يعلن قدوم المطر وحصول الاتحاد والخلاص، وينهي حديثه بهطول المطر.

٣ ـ محور الطفولة: الطفولة بما تحويه، وما تشتمل عليه، وما تدل عليه من حنين، وحب وشوق وميلاد فلذلك وردت الاشارات الى الطفولة والامومة، والميلاد في الانشودة منذ البداية، فنشوة الطفل، وكركر الاطفال، كأن طفلا بات يهذي، كلها اشارات طفولية بالاضافة الى ان الكلمات والافعال والصور التي تختص بالطفولة جاءت منسجمة مع جو الطفولة فهي خفة، ومرح لذلك نرى، الكروم، نهر، سحر، دغدغت، كركر، نشوة فكل هذه الاشارات تدل على تعلق الشاعر بالطفولة، وما ترمز اليه من حنين، وحلم وشوق الى القرية ـ الطفولة ـ وما فيها من تمازج الانسان بالارض، وما تشتمل عليه من الحب

والبراءة، والبساطة، فالطفولة ع هي الحنين الى الفردوس المفقود الى القرية، وهي الحلم في الاتحاد مع الام والعودة الى رحمها ليكون البعث والميلاد الجديد، والخلاص.

وما ان يشعر ان هذا الحلم قد بدأ يتحقق في الوقت الذي ظهرت فيه القوة والتغيير ـ بروق، رعود، حتى نرى الشاعر يعاودنا بصورة الطفولة ـ صورة الحنين والشوق المتجدد الى الاتحاد ـ ايذانا بميلاد جديد، ـ فمنذ أن كنّا صغارا ـ كانت السماء تغيم ويهطل المطر، إنها العودة الى القرية ـ الطفولة ـ حيث الخير والحرية والاتحاد والحنين الى الماضي حيث اللقاء مع الام ـ الارض ـ والعودة الى الفردوس فهناك يحصل الاتحاد والبعث، ولذلك نراه يستعجل التغيير، وينتظر بشوق بالغ لكي يحصل الميلاد الجديد وتتحقق العودة والخلاص في عالم الغد الفتي، حيث الابتسام، والفرحة المتوردة على فم الوليد ـ ثغر الطفولة، الحب الحنين، الامومة ـ، فهذه الكلمات كلها من، مبسم جديد، الوليد، عالم الغد الفتي، تدل على الصغر وعالم الطفولة، وتنبيء بالميلاد الجديد وهذا يتجسد في ندائه للخليج كي يهبه المحار ـ رمز الامومة والحنان والحياة، ويهبه الردى ـ العودة الى الاتحاد مرة اخرى ـ لكي يحصل الميلاد ثم الطفولة مرة ثانية، وعلى هذا جاءت آخر كلمة في الانشودة تنبيء بالميلاد والبعث «ويهطل المطر» وأول كلمة في الانشودة جاءت اشارة انسانية فهذا يوضح مدى التمازج والاتحاد بين الانسان ـ والماء. وحيث ان الماء الذي شمل الانشودة من أولها الى آخرها يرمز الى الرحم أو الأم ـ الارض ـ وهو من ثم ولادة وبعث ونشور، وطفولة وتجدد فان الطفولة بهذا المعنى قد سيطرت على جو الانشودة من أولها الى آخرها.

ولزيادة ايضاح معنى الطفولة ـ القرية ـ وما تدل عليه من الحرية والعدالة والخصب الانساني، وما ترمز اليه من شوق وحنين الى الاتحاد مع الأم ثم ميلاد، وخلاص كان لا بد لايضاح هذه الصورة عند الشاعر من مقابلتها بصورة المدينة ـ الحاضر، الكبر ـ وما تحفل به من ظلم وجوع وأسى، وتسلط، حتى ان هذا الظلم وهذا الجوع هو دائم ويتصف بالاستمرار ـ ما مر عام والعراق ليس فيه جوع ـ، بينما كانت صورة القرية ـ الطفولة كلها خير ومطر ـ ومنذ ان كنا صغارا، كانت السماء ـ

كما ان الطفولة وما ترمز اليه من براءة وحب، وحنين يقابلها في المدينة صورة قاتمة بشعة، فهي تشتمل على الغربان والجراد والافاعي، ففي العراق ـ المدينة ـ الحاضر ـ ألف أفعى تشرب خير البلاد وتمتص عرق العبيد ودماء الجياع لذلك جاءت هذه المقابلة لجلاء صورة الطفولة ـ القرية ـ وايضاح سبيل الاصلاح، والتحرر، والعودة الى الفردوس المفقود، وبيان تعلق الشاعر بالماضي ـ اي بالقرية والطفولة ـ حيث جيكور بلدته الوادعة فيها التحرر والحرية والحب.

بهذا تكون هذه المقابلة بين المواقف المختلفة بين الماضي، والحاضر، وبين القرية والمدينة، بين الطفولة والكبر، واصرار الشاعر على انتصار الانسان بالعودة والاتحاد مع الام ـ الارض ـ يكون الماضي استمرار للحاضر، وان تختفي من الحاضر كل مظاهر الظلم، والجوع، والتشرد

ليصبح كالماضـي ـ كالطفولة ـ كله حب وخير، ومساواة والارتباط مع الارض والخير.

بالاضافة الى كل ما ذكر نجد ان الطباق الذي يشمل الانشودة، مثل الموت، الميلاد ثم الضياء، الظلام، وكذلك الجياع، الشبع، والغربان والجراد مع الطفولة، هذا بالاضافة الى التناقض الموجود في الرمز المزدوج للماء، هذا الطباق في الانشودة جاء مناسبا لموضوع الطفولة التي تتميز عادة بالحياة والحركة والحيوية والنشاط ليدل على انها طفولة حقيقية عاشها الشاعر في قريته ـ جيكور ـ وعاش بساطتها وحريتها فامتزج حبه بالارض بل اتحد هو بالأم وهو في كل ذلك يعبر عن المشاعر الانسانية الدفينة التي تربط، وتوحد بين الانسان وارضه ووطنه حتى انه اعتبر الوطن هو الام اليها يكون الحنين، وفيها يكون الخير والحرية، ومعها يكون الاتحاد، انها صورة الطفولة حيث يحتضن الطفل صدر أمه ليتبادل واياها الحب والعطف والحنان، بينما حال المدينة تشرد وجوع وغربان وجراد بل هو الجوع المستمر في كل عام: وكل عام ـ حين يعشب الثرى ـ نجوع. فالجوع صفة ملازمة للمدينة بحيث انه لم يمر عام الا والعراق فيه جوع.

هذا التناقض، والطباق في الصور والمفردات، يوضح بجلاء نفسية الشاعر القلقة على مصير شعبه، بل على المصير الانساني الذي يرزح تحت الظلم، كما يصور نفسية الشاعر المضطربة فهو بين ماضي اصبح حلما يحن اليه، ويتمنى عودته وبين امر واقع فيه الظلم والجوع، اناسه غربان وجراد، بينما في الماضي طفولة كلها حب وصفاء فالشاعر بذلك ينظر الى ما كان عليه الوطن، وما هو كائن عليه في الوقت الحاضر، وما يجب ان يكون عليه، ولذلك جاء التناقض والطباق لتصوير القلق على مصير الانسانية المهدد بالخطر من الغربان والجراد والافاعي.

لذلك نرى الشاعر يجسد الوطن كله في صورة مفرد ويخاطبه مباشرة وعن قرب ليكون ذلك ابلغ في الدلالة وليبين حرصه الشديد على نقل مشاعر القلق، ولينبيء عن عظم الخطر الذي يهدد الوطن والانسان، ويحدق بالامة.

هذا الخطاب المتمثل في قوله:

عيناك غابتا نخيل

وقوله: عيناك حين تبسمان

هذا الخطاب سريعا ما يولد الصراع الداخلي الذي يعيشه الانسان والتمزق الذي يعبر عن المـأسـاة الانسـانية، لذلك نلاحظ هذا الحوار الذي يمثل طرفي الصراع في قوله: أتعلمين..... وكيف تنشج..... وكيف يشعر الوحيد، فهذا الحوار يدل على الصراع الذي يعانيه الشاعر حيث يتصارع ويتحاور هو والام التي اتحد معها واصبح في رحمها، لذلك يعود بعد هذا الحوار الى الخطاب المباشر مرة اخرى فيقول «ومقلتاك بي تطيفان مع المطر ـ فهو في صراع دائم، وتمزق، وتناقض عجيب يبقى كذلك حتى اذا ما احس ان عنصر القوة قد ظهر، وأن حركة التغيير قد اوشكت على الظهور ـ رعود، بروق، الرجال، الرياح،

الجبال ـ نراه هنا بدأ بالتصريح باسم العراق فلا نجد أي تشخيص للعراق بعد عصر القوة هذا وكأن الشاعر اطمأن بعض الشيء وأنس بوجود تغيير للوضع، لذلك يكرر اسم العراق مباشرة ست مرات في هذا القسم فهو بذلك يستعمل الاسلوب الواقعي هنا حيث يصرح باسم العراق، ويصور ما فيها من جوع، وظلم، وما تحويه من الغربان والجراد والافاعي، وذلك لاستنهاض الهمم وبث روح التغيير والثورة، اما في القسم الاول من الانشودة فقد رأينا اسلوبه رومنسيا تهدأ له النفس إما يأسا من التغيير واستعباد لبزوغ الفجر، او مناسبة لجو الطفولة والصغر الذي يشيع في هذا القسم، فالطفولة حب وبساطة وحنين لهذا نراه يستعمل أسلوب الحكاية الطفولية البسيطة في الحديث عن الطفل وأمه ـ أي عن الانسان والارض ـ وما جرى بينهما من انفصال وقوله ـ بعد غد تعود.... ـ فهو اسلوب الاطفال والأحاديث البسيطة على الرغم مما يظهر من اهتمامه بالغد الذي يحمل في طياته التغيير ولذلك جاء في القسم الآخر أن عالم الغد الفتي هو واهب الحياة.

على هذا النحو جاء القسم الاول من الانشودة عليه المسحة الرومنسية، الخفيفة وجاء في قسم القوة والتغيير واقعيا مصورا ما في العراق ليساعد في عملية التغيير، فعندما نراه يحاور العراق ويخاطبها بالاسم وصراحة يدل بذلك على اهمية الموضوع الذي يناقشه الشاعر ويكشف عن مدى شوقه الى الغائب وحنينه الى الماضي حيث الطفولة، والحب، والخلاص ويجب الا ننسى ان السياب من اتباع المدرسة الرمزية التي تغرق في استعمال الرموز لتعميق الدلالة او نتيجة لظروف خاصة بالشاعر هذا بالاضافة الى كونه واقعيا اشتراكيا ورومنسيا حادا.

بقي لنا ان نشير هنا الى موسيقى السياب في انشودته هذه ومدى مناسبتها لموضوع الانشودة.

لقد جاءت موسيقى السياب في انشودته خارجية حادة وذلك لملىء الفراغ الداخلي والخارجي الذي يحسه السياب ويعيشه فهو متألم وثائر وقلق مضطرب دائما وذلك لبعده عن قريته «جيكور» وما فيها من أمن وحرية وهدوء وانفصاله عن أمه وأبيه وجده ودخوله باب المدينة وما فيها من جوع وظلم، وما يشعر به من تشرد واضطهاد له ولهؤلاء الجياع، والعبيد، فجاءت انشودته هذه مثقلة بالروح التموزي ـ المسيحي داعيا فيها الى الاتحاد والبعث والنشور ومن ثم الخلاص والعودة الى الفردوس المفقود، لهذا نرى السياب يستعمل في هذه الانشودة موسيقى بحر الرجز ـ حمار الشعراء ـ بجميع التحولات التي تطرأ على تفعيلة هذا البحر، والاشكال التي تنتهي اليها فقد طوع الأوزان والتفعيلات لوجدانه الثائر ومزاجه الشعري الحاد فهو يستعمل الاوزان وفق ما يقتضيه الحال، فجاءت انشودته وحدة فنية متكاملة تزخر بالنغم والحرارة التي استغلها الشاعر للتعبير عن قضيته الكبرى التي يدافع عنها، ويدعو من اجلها الا وهي قضية الانسان وارتباطه بالارض ـ الأم ـ في حرية وعدالة، ومساواة.

لقد اظهر لنا الشاعر بوضوح وقوة تلك العلاقة الجدلية التي تربط ما بين الانسان والارض مستغلا المأساة الشخصية والفردية التي عاشها الشاعر فقد انفصل بصورة قسرية عن امه التي توفيت وهو لا زال طفلا صغيرا وعندما كان يسأل عنها كانوا يقولون له «بعد غد تعود» كما انه يذكر في انشودته بعض الحكايا الطفولية التي كان يعيشها متصلة بموضوع امه ـ رمز الحب والحنان والاتحاد ـ فقد كان الاطفال الذين يلعبون معه يقولون له بأن امك تسكن هناك بجانب التل وتتغذى على التراب الذي تسفة، كل احداث الطفولة هذه يستغلها الشاعر ويجعل منها مأساة جماعية وانسانية عامة فانفصاله عن امه وابيه وجده ـ مصدر الحب والحنان والاطمئنان بالنسبة للطفل ـ تعني انفصال الانسان عن ارضه وأنه لا راحة له حتى يموت ليلتقي ويتحد مع امه، وكذلك لا يطمئن الانسان حتى يعود ويتحد مع امه وهي هنا الارض التي انفصل عنها بالهجرة القسرية او التشرد فهي دعوة الى التمسك بالارض والدفاع عنها والموت في سبيلها.

بالنسبة لعاطفة الشاعرة: نحن في غنى عن ذكر عاطفته لوضوحها الشديد وتأثيرها العميق في النفس فهي عاطفة الحنين الى الماضي ـ الطفولة، القرية، أمه ـ وهي عاطفة حب الوطن والانسان حبا يصل الى درجة التقديس والاتحاد. وهي ايضا عاطفة الايمان بقدرة الانسان على التغيير، كما نرى بوضوح عاطفة النفور والاشمئزاز من المستغلين لتعب الكادحين والظالمين لهم والمستعمرين للشعوب فهي عاطفة الثورة والتمرد على هؤلاء وعلى الاوضاع التي كانت تمر بها العراق. ثم هي عاطفة التشاؤم وفقدان الأمل في بداية الانشودة وتحولها الى التفاؤل والثقة في المستقبل في بقية القصيدة.

وبالاجمال فاننا نشعر من خلال انشودته بالتدفق العاطفي وبلفظه المعبر عن الثورة فهو شاعر التحرر والوجدان والحياة فانشودته من بحر الرجز جمع فيها بين الاشتراكية والواقعية والرمزية عبر فيها عن أهداف سياسية كبرى.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الخامس

مصطفى وهبي التل

«رثاء الهبر»

مصطفى وهبي التل
(١٨٩٩ - ١٩٤٩م)

حيـــاته:

هو مصطفى وهبي[١] بن صالح المصطفى اليوسف التل ولد في مدينة اربد سنة ١٨٩٩م حيث نشأ فيها وتلقى تعليمه الابتدائي ثم انتقل الى دمشق حيث التحق فيها بمدرسة عنبر وفي اثناء ذلك اشترك في احتجاجات ضد الاتراك فنفي الى بيروت ثم ما لبث ان عاد الى دمشق ومنها مرة اخرى الى اربد ولم يطل به المقام فيها حتى غادرها سنة ١٩١٧ الى عربكير حيث عمل فيها معلما لمحلة اسكيشهر وتزوج هناك من زوجته الاولى[٢] ثم يعاوده الحنين مرة اخرى الى اربد فيعود اليها سنة ١٩١٩ ليطلب من والده ان يعيده الى دمشق ليكمل تعليمه في مدرسة عنبر ويضطر الاب لارجاعه الى المدرسة ولكن ما ان يصل اليها حتى يشارك في حملة الاحتجاجات ضد الاتراك فينفي مرة ثانية الى حلب وهناك اكمل تعليمه الثانوي في المدرسة السلطانية سنة ١٩٢٠ وعاد الى مدينة اربد وقد عمل بعد عودته مدرسا في مدرسة الكرك سنة ١٩٢٢ ولم يلبث ان نفي الى العقبة في مطلع سنة ١٩٣١ بسبب مجموعة من المقالات السياسية نشرها في جريدة الكرمل الحيفاوية كما عمل الشاعر حاكما اداريا للعديد من النواحي منها وادي السير والزرقاء والشوبك بالاضافة الى عمله في سلك التعليم في مختلف المناطق الاردنية حتى وصل الى مرتبة المفتش الاول في وزارة المعارف وكذلك عمله في سلك القضاء منذ سنة ١٩٣٣ حيث عمل مأمور اجراء في كل من اربد وعمان، ثم رئيس محكمة الاستئناف ومدعي عام السلط وغدا مساعد النائب العام وغيرها من المناصب الرفيعة لينتهي به المقام الى السجن سنة ١٩٤٢ اثر خلاف بينه وبين رئيس الوزراء آنذاك «توفيق ابو الهدى» وبعد خروجه من السجن عام ١٩٤٣ امتهن المحاماة وادمن على الخمرة والشراب وغرق في بحر من اليأس والمرارة لتنتهي حياته وتعلن وفاته سنة ١٩٤٩ ويدفن حسب وصيته في تل اربد.

يا اردنيات ان اوديت مغتربا فانسجنها بأبي انتن اكفاني
وقلن للصحب: واروا بعض اعظمه في تل اربد او في سفح شيحان

شخصيته وآثاره: قضى مصطفى وهبي التل حياته الاولى في جو من القلق وعدم الاستقرار وذلك لشدة الخلاف بين والديه الامر الذي ادى الى افتراقهما وقد احدث هذا الامر شرخا في نفسيته وشخصيته بقيت اثارها ظاهرة ومؤثرة في حياته وشعره فيما بعد

---

(١) سمي مصطفى تيمنا باسم جده اما وهبي فهي اضافة على الطريقة التركية السائدة.
(٢) تزوج مصطفى وهبي التل اربع زوجات كانت الاولى منيفة بنت ابراهيم ابن بابان اخت زوج عمه علي نيازي.

وقد ترافق الشعور مع الوضع المأساوي الذي كان يعيشه ابناء وطنه مع انحسار الحكم التركي وبداية عهد الاستعمار البريطاني البغيض حيث غرق المجتمع في الجهل والبؤس والشقاء وهكذا نراه ينشأ ثائرا متمردا وقلقا ساخطا ما جعله عرضة للنفي والتشريد والسجن اكثر من مرة، فلم يعرف شاعرنا الهدوء والاستقرار ولذلك يوجه ثورته وسخطه الى المجتمع حتى اذا رأى مجتمعه أبعد ما يكون عنه انكفأ على نفسه وعاد اليها ليغرق في لجة من الخمر والشراب لينسى بها همومه والامه ويفرغ فيها شحنة ثورته وسخطه وهو في اثناء ذلك يلوذ بمدينته الفاضلة وهي «المجتمع النوري» الذي كان يألفه الفا لا حدود له يرى فيه منجاته ويحقق من خلاله الصورة التي طالما تمناها لمجتمعه فهو مجتمع لا سادة فيه ولا عبيد لا رئيس ولا مرؤوس لا ظلم فيه ولا قهر:

الكل زط مساواة محققة تنفي الفوارق بين الجار والجار

وقد اتخذ مصطفى وهبي لنفسه لقبا هو «عرار» وذلك للشبه الكبير بين حياته وشخصيته من جهة وحياة وشخصية عرار بن عمرو بن شأس الاسدي من جهة اخرى فلقد كان هذا الاخير شاعرا قوي الشكيمة قد لاقى الحرمان من حنان أمه والالم من زوج ابيه فهو يخاطبها قائلا:

ارادت عرارا بالهوان ومن يرد عرارا ـ لعمري ـ بالهوان فقد ظلم

ولذلك نرى شاعرنا مصطفى وهبي يكرر هذا البيت كثيرا ويوقع كتاباته وقصائده باسم «عرار».

تعددت جوانب الثقافة عند عرار فقد اتقن اللغتين الفارسية والتركية الى جانب لغته وتراثه العربي الاصيل كما درس الكتب المقدسة جميعها واهتم باللغة وشواردها وبالامثال الشعبية والحكم الشائعة ضمنها مجموعته «أمالي عرار» كما ترجم رباعيات الخيام نثرا وترجم للعديد من ادباء الفرس امثال سعدي وحافظ الشيرازي وجلال الدين الرومي وغيرهم، كما ترجم عن الادب التركي الشيء الكثير.

وللشاعر العديد من الاثار نذكر منها:ـ

١ ـ ديوانه الشعري «عشيات وادي اليابس» او «ايام وليال في مضارب النور»

٢ ـ بالرفاه والبنين: كتيب قدمه للملك طلال بن عبدالله بمناسبة زواجه.

٣ ـ كتيب «الأئمة من قريش».

٤ ـ اوراق عرار السياسية: وهي مجموعة مقالاته في جريدة الكرمل.

٥ ـ المنقذون ـ مأساة مضحكة.

٦ ـ بالرفاه والبنين ـ مترجمة ـ
٧ ـ ســـدوم
٨ ـ قصة شاعر.
٩ ـ فن اسقاط الوزارات ـ مترجمة.
١٠ ـ المعارف في شرق الاردن
١١ ـ اصدقائي النور
وغيرها كثير.

شعره وشاعريته:

١ ـ يعتبر شعر مصطفى وهبي التل صورة صادقة لنفسه وشخصيته القلقة المضطربة المتحررة الثائرة على الظلم والقهر والجهل وهي صورة لحياته الخاصة كما قضاها بين خرابيش النور وفي الحانات بين الندامى والكؤوس انها صورة الرجل الثائر على تقاليد مجتمعه البالية وصورة الشاعر الحريص على مصلحة ابناء وطنه الكبير الداعي الى اصلاحه.

٢ ـ كان مصطفى وهبي التل يتبع في شعره ومعالجاته اسلوب المدرسة الرومانسية التي لا تعترف بالقيود الكلاسيكية فتثور عليها وتحطمهما وتدعو دائما الى التمرد عليها. انها الرومانسية الداعية الى تحرير الانسان وانطلاقه والمؤمنة بقدرته على التغيير ورفضه للواقع الذي يعيشه.

٣ ـ الرومانسية تنظر الى الانسان والحياة نظرة متكاملة ولذلك نرى الشاعر عرار يمزج في شعره بين الانسان والنبات وجميع مظاهر الحياة:

خداك يا بنت من دحنون ديرتنا سبحانه بارىء الاردن من باري

فهذا يعكس مدى ارتباط الانسان بالارض ومدى تقديس الشاعر للوطن وترابه وهذا هو النهج الرومانسي الذي يجعل من جميع مظاهر البيئة رموزا دائمة الحركة والفعالية والحيوية ولذلك استخدم «الهبر» وهو نوري دميم الخلقة رمزا للانسان العادي البسيط المضطهد والمظلوم ورمزا للانسان المشرد الضائع في وطنه، كما استخدم شخصية الشيخ عبود النجار رمزا للفئة النفعية الوصولية فهو «حصة من في جيبه نقود» كما يقول.

كما ان كل قرية أومدينة أوواد أو امرأة اوردها في شعره كانت رمزا للوطن بكامله.

٤ ـ كانت عناية عرار بألفاظه عنايته بمعانيه كبيرة ودائمة فكان دائما يعيد النظر فيما يكتب فيشطب ويعدل ويقدم أو يؤخر أو يحذف وان استخدم اللفظ العامي فلوظيفة مزدوجة تهدف الى اشاعة قوله ونشره ليكن على كل لسان، فيعظم اثره وتعم منفعته ولذلك كان لعرار قاموس من الالفاظ والامثال والحكم الشعبية زاخر لا ينضب الامر

الذي اكسب شعره سيرورة على كل لسان وشعبية عند معظم الناس.

ان عرارا في صناعته لشعره يشبه الى حد بعيد شعراء مدرسة عبيد الشعر أصحاب الشعر الحولي المحكك فهو يحذف ويغير في ابياته والفاظه مرات عديدة حتى يستقيم المعنى الذي يريد.

٥ ـ يعد عرار من الشعراء الملتزمين بقضايا امتهم الكبرى ولذلك نراه يقف الى جانب الضعفاء والفقراء والطفارى من ابناء الشعب وهم الكثرة الساحقة فهو شاعر الشعب وشاعر المظلومين والمقهورين والصعاليك حيث يهاجم المرابين وينادي بالعدالة الاجتماعية:

ان الصعاليك مثلي مفلسون وهم لمثل هذا الزمان ـ الزفت ـ خبوني

وليس هذا بدعا على الرومانسيين فهم يسعون دائما الى تحقيق الصورة المثالية لمجتمعاتهم وشعوبهم.

٦ ـ كثرت الاخطاء اللغوية والعروضية في شعر عرار واغلب الظن ان ذلك لم يكن لضعف في عرار او لجهل منه بقواعد اللغة وانما كان انطلاقا من مذهبه الرومانسي الذي لا يعترف بالقواعد الكلاسيكية ويشجع الخروج عليها وتحطيمها أو ان ذلك يعود الى اضطراب حياته والتي انعكست على شعره.

المناسبة:

قال الشاعر مصطفى وهبي التل هذه القصيدة بعد ان تناهى الى مسامعه وهوفي عمان وكان يعمل مأمور اجراء فيها ان الهبر[1] قد توفي فما كان من الشاعر الا ان رثاه بهذه الابيات اليت نشرتها جريدة الاردن الصادرة آنذاك سنة ١٩٣٤ وقد احدثت هذه القصيدة ضجة واسعة ليس في الاردن فحسب بل في العالم العربي ايضا ذلك ان الناس قد اعتادوا سماع شعر الرثاء في الملوك والامراء والولاة وعليَّة القوم بشكل عام اما ان يسمعوا ذلك في «نوري» متشرد مضطهد فهذا مما لا عهد لهم به ما جعل سعيد الدرة يبعث برسالة الى عرار يقول له فيها «مرثيتكم في المبرور الهبر موفقة جدا».

وقد تبين بعد ذلك ان الهبر لم يمت وان كل ما ذكر حول وفاته كان من قبيل الاشاعات ما جعل شاعرنا يفرح لذلك فرحا شديدا.

---

(١) الهبر: نوري من الاردن اسمه رصاص او محمد الفحل لقب بالهبر لضخامة جسمه وكثافة شعره ولحيته وهيئته الزرية وقد توفي الهبر حوالي سنة ١٩٥٠ بعد وفاة الشاعر بما يقرب من عام.

رثـــاء الهـــــــبر(*)

الله بس باقي هوس(*)

(١) اين جمشيد اين كايو كباد؟ اين زال؟ زالـوا جميعـا وبـادوا
(٢) وعلى الهبر قد رسا مثلهـم بالامس في مصفق المنون المـزادُ
(٣) لم تفطر مرائر الزط لمـا غيبـــوه ولا انفـرت اكبـــادُ
(٤) ودوى طبلهم كما كان يـدوي يـوم للهـبر كانت الامجـــــادُ
(٥) واستمر الندمـان يسقون صرفا مـن رحـيق كرومـه (جلعـاد)

الشرح اللغوي:-

★ الهبر: هو محمد الفحل وصفه مصطفى وهبي التل بقوله: رثيت بها التشرد وسيد ضاربي الدنيا «صرمه» المتوكل على الله، عبده وابن عبده، «الهبر».

★ هذه العبارة من بيت تركي، ومعناه ان البقاء لله وحده.

(١) في بعض النسخ: «اين زالا» وهي خطأ.

والبيت من رباعيات الخيام، ترجمة وديع البستاني، النشيد الاول. جمشيد، وكايو كباد وزال من ملوك الفرس، وفي الشاهنامه كيقباد، واخبارهم فيها. وبادوا: ذهبوا وماتوا والمعنى ان هؤلاء العظماء جميعا ماتوا فلا غرو ان يموت الهبر فالموت حق على كل انسان.

(٢) في بعض النسخ وردت:

«وعلى الهبر قد رسا فاتعظ يا شيخ في مصفق المنون المزاد»
«وعلى الهبر قد رسا فاتعظ يا صاح في مصفق المنون المزاد»

مصفق: المصفق: السوق يكثر فيها عقود البيع (الوسيط: صفق). وهو هنا يشبه الحياة والموت بالسوق الذي يقوم فيه المزاد وقد استقر المزاد على الهبر.

(٣) + (٤) تفطر: تفطر الشيء: تشقق (اللسان: فطر) المرائر جمع مرارة. الزط: من الاسماء التي تطلق على الغجر. يقول بان النور لم يحزنوا كثيرا لوفاته وانما ارتفع صوت طبلهم معلنا وفاة عظيم تماما كما كان يضرب له الطبل وهو حي احتفالا بمقدمه.

(٥) جلعاد: هي جبال السلط المشهورة بزراعة الكروم: يقول بان النور قد استمروا في الشراب الصافي النقي المستخرج من كروم جبال السلط المشهورة بزراعة الكرمة.

(٦) ومضى عازف الربابة يشدو لحنه وانبرت لرقص «سعادُ»
(٧) هبر، حتى حمير قومك اذ تنشج مغزى نشيجها إنشادُ
(٨) مت كما شئت فالندامى بلهو ليس من شانهم عليك الحدادُ
(٩) هبر ساقي السقاة ما زال قد نحاك عما اصابه الورّادُ
(١٠) واعوجاج الزمان يا هبر ما زال اعوجاجا ينوء فيه السدادُ

الشرح اللغوي:-

(٦) سعاد: راقصة من راقصات النور المشهورات.

يشير هنا الى عادة النور في الرقص على انغام الربابة التي اشتهروا بالعزف عليها.

(٧) ورد هذا البيت في بعض النسخ:

هبر! حتى حمير قومك اذ تنهق فحوى نهيقها انشاد

يقول انه حتى حمير النور كانت تشارك في النشيد والرقص هنا يشير الى ان مجتمع النور تسوده المساواة فلا فرق بين موت الهبر او غيره.

(٨) في بعض النسخ ورد:

«مت كما شئت، فالحياة متاع ما بقينا لا يعتريه الكساد»

يشير هنا الى ان حالة ا لنور ووضعهم العام لم يتغير بوفاة الهبر بل استمروا في غنائهم ورقصهم دون حزن او حداد عليه.

(٩) في بعض النسخ ورد:

«هبر ما زالت الحياة على مثلك عبئا ناءت به الاطواد»

الوارد: من ورد الماء وغيره والوراد: كثير الورود، لا زال يشير الى عادة الشرب المستحكمة في النور والى الطقوس المتبعة عندهم في مجالس الشراب.

(١٠) «واعوجاج الزمان ما زال يا هبر اعوجاجا به ينوء السّداد» هكذا ورد في بعض النسخ: يشير هنا الى مصائب الدهر والايام وانقلاب الموازين في هذه الحياة فالزمن وقف الى جانب الاخساء وتخلى عن الشرفاء امثال الهبر فلا مكان في هذا الزمان للصواب والحق.

(١١) وبياض النهار ما زال منه حظنا كان يا تعيس سوادُ
(١٢) لا تخف ظلمة القبور ففيها يتساوى الأفذاذ والاوغادُ
(١٣) وينام الصعلوك جنبا لجنب والسراة الذين شادوا وسادوا
(١٤) أيهذا التراب بوركت مـــن قاضٍ لأحكامه استراح العبادُ

الشرح اللغوي:-

(١) في بعض النسخ ورد:

«وبياض الحظوظ ما زال منه حظنا كان يا شقي السواد»

تعيس: الصواب تعس وتاعس. يقرن نفسه بالهبر فلم ينالا من الحياة الا الظلم والقهر ولم يعرفا طعم السعادة فيها.

(١٢) في بعض النسخ ورد:

«لا تضق بالقبور ذرعا ففيها يتساوى: الافذاذ والاوغاد»

أي أن جميع الناس متساوون عند الموت في القبور ولذلك لا يوجد في هذه الحياة ما يؤسف عليه.

(١٣) هذا البيت استكمال لمعنى البيت السابق أي أن الموت يتساوى فيه العبد والصعلوك مع السيد فلا سادة ولا عبيد ولا ينفع الانسان في قبره ما كان يتمتع به في دنياه من القوة والسطوة والنفوذ.

(١٤) في بعض النسخ ورد:

«ملك الموت حبذا انت من قـا ض لانصافه استراح العباد»

لقد كنت أيها التراب القاضي العادل والحكم المنصف.

(١٥) هبر ليست دنياك عبدة رق لأناس بعرفها اسيادُ
(١٦) كل حي لسوف تحمله يوما لمثواك مرغما اعوادُ
(١٧) والشقي الشقي من يحسب العمر بناء لا يعتريه النفادُ
(١٨) إن حبل الردى مشاع وعنه قفز الهبر وابن شداد عادُ
(الاردن، ١٩٣٤/١١/٢٧)

الشرح اللغوي:ـ

(١٥) في بعض النسخ ورد:

«ويظن الحياة عبدة رق لأناس بعرفها اسيادُ»

يقول بأن الحياة هي السيدة الوحيدة فلا عبيد ولا أسياد عندها فالكل سواسية يموتون ويدفنون لا فرق بينهم.

(١٦) فكل حي في هذه الحياة سوف تكون نهايته الموت بحيث يحمل الى القبر على الاعواد وينتهي به المقام الى ما انتهيت اليه يا هبر.

(١٧) في بعض النسخ ورد:

«فالشقي الشقي من يحسب العمر خلودا، لا يعتريه النفاد»

ولذلك فان اشقى الناس وأتعسهم في هذه الحياة من يظن نفسه مخلدا فيها لا يطوله الموت والهلاك.

(١٨) شداد هو ابن عاد وليس العكس، وشداد بن عاد كما يروى كان قويا جبارا، سمع بوصف الجنة فأراد بناء مدينة تفوقها حسناً وجمالا، فابتنى مدينة (إرم) باليمن، ولكنه لم ينعم بها إذ كفر بالله فهلك. ولذلك فإن حبْل الموت يصيب كلّ انسان فلم يسبق أن نجا منه أحد.

الدراسة الفنية:ـ

يمكننا دراسة قصيدته في «رثاء الهبر» فنيا وذلك ضمن الاطار الفني العام الذي ترسمه الملاحظات الفنية التالية، حول الشاعر وقصيدته على النحو التالي:ـ

١ ـ كان شعر مصطفى وهبي التل يمثل حياته وبيئته أصدق تمثيل فهو صورة لنفسيته القلقة المضطربة الثائرة المتمردة. ولذلك نراه يجمع في القصيدة الواحدة بين الغزل والخمر وبين السياسة والوطنية، كما كان يعبر في قصائده عن رؤيته الخاصة والمتميزة للواقع الذي يعيشه وذلك ضمن اطار المدرسة الرومانسية في الادب التي ترى أن العاطفة الفردية هي ينبوع الفكر والابداع.

فالرومانسي تتنازعه عواطف قوية ومختلفة في آن واحد من مثل عاطفة الحب الكبير والاسى العميق معا.

كما ان الرومانسي يؤمن ايمانا مطلقا بالتحرر والانطلاق ولذلك فهو يدعو للثورة والتمرد ورفض الخضوع للواقع المر الذي يسلب الانسان حريته وارادته ولذلك ثار مصطفى وتمرد على قيم وتقاليد مجتمعه الظالمة غير ان ثورته تلك فشلت فغرق في بحر من التشاؤم والشراب وبرز في شعره التذمر والشكوى.

وعليه كانت القصيدة عند الرومانسي وحدة داخلية نفسية تامة يجمعها شعور واحد وان بدت من الخارج مواضيع متعددة فقصيدته لا تتمتع بالوحدة الخارجية (وحدة الشكل) بينما تتمتع بالوحدة الداخلية بحيث يجمعها شعور واحد هو الثورة والنقمة والتمرد.

ومن مظاهر الرومانسية عنده اكثاره من ذكر اسماء القرى والمدن والاماكن في شعره فهو في ذلك وفي للحركة الرومانسية التي تُجل الاساطير والفلكلور لانها ترى فيهما رموزا دائمة الحيوية لاماني الانسان كما ان الحركة الرومانسية تجل الارض وتعلي من شأنها لانها تمنح شعبها وجها يتجدد مع الزمن وتزرع في نفوسهم الامل الدائم نحو الحرية والاستقلال.

ومن مظاهر رومانسيته تلك وقوعه ببعض الاخطاء اللغوية أو العروضية وذلك من باب ثورته الرومانسية التي لا تعترف بما وضعته الكلاسيكية من قواعد بل ترى الخروج على هذه القواعد من أهم اسسها.

٢ ـ كان الشعر في نظر مصطفى وسيلة مهمة للوصول الى غاية كبرى وهي اصلاح المجتمع ومعالجة عيوبه ودعوته الملحة الى تحقيق العدالة والمساواة والتكافل الاجتماعي بين جميع ابناء الامة. ولذلك لم يكن شعره صورة او تصويرا للمجتمع بقدر ما هو تعبير عن احساس الشاعر ونظرته الى هذا المجتمع.

٣ ـ مصطفى في شعره ملتزم بقضيته ووطنه ومجتمعه فنراه يقف ضد المستعمرين ويخاطب المعتمد البريطاني قائلا:

والحق لا بد من إشراق طلعته مهما استطالت على اهليـــه ظلماء

كما نراه يقف الى جانب المظلومين فيخاطب المرابين قائلا:

ان الصعاليك مثلي مفلسون وهم لمثل هذا الزمان ـ الزفت ـ خبوني

٤ ـ كان مصطفى يدقق ويمعن النظر طويلا في اختيار الفاظه ومعانيه ولذلك نراه يستخدم اللفظ العامي او الشائع او الغريب كما يستعمل المثل الشعبي الدارج لكي يستطيع هذا اللفظ ان ينقل الدلالة والموضوع بوضوح ويسر كما يريده الشاعر هذا بالاضافة الى ان اللفظ كان يمثل دلالة وموضوعا مستقلا عند الشاعر فقد كان ينتقي الفاظه ومعانيه لتعبر عما يجول في صدره وما يريده ومن الامثلة على ذلك قوله:

«يقيم قيامتي» طـورا «واحرق ديكه» تـارة
وقوله: «فبلطوا البحر» غيظا من معاملـتي
وبالجحيم ان استطعتم فزجوني

وهذا كله ما يجعل شعره شعبيا محببا قريبا من أذواق الناس وافهامهم ولذلك كان الابداع الشعري عند مصطفى نوع من المخاض العسير فهو نتاج قلق ونزق وتوتر ولذلك كان شعره من النوع المحكك فهو يعيد ويكرر ويلغي اكثر من مرة كي يتوصل الى رسم الصورة التي يريدها باللفظ الموحي الدال.

٥ ـ مصطفى من الشعراء الذين اهتموا بالرمز كثيرا وجعلوه ذا دلالات وايحاءات متعددة فنراه يستعمل الهبر رمزا للانسان البسيط المنبوذ والمضطهد المشرد والضائع فكان يرى فيه صورة لنفسه وصورة لابناء وطنه فهو يسخر منها حينا ويتعاطف معها حينا آخر.

كما كان كل اسم ذكره مصطفى (من امرأة او قرية او قبيلة او نهر) رمزا للوطن بكامله الذي أحبه واخلص له.

٦ ـ كان يرى في خرابيش النور ومجتمعهم مدينته الفاضلة المثالية التي تحقق له الاستقرار والاطمئنان حيث يتساوى فيها جميع الافراد فلا فرق بين عبد وسيد او رئيس ومرؤوس او بين غني وفقير، ولذلك كان خروجه من مجتمعه الى مجتمع النور نوعا من انواع التصعلك والتمرد والخروج على تقاليد مجتمعه ورفضها وعدم الاعتراف بها ولذلك كان يرى ان للانسان شخصيتين، شخصية يعرفه بها الناس وهي الظاهرة للعيان، وشخصية لا يعرفها الا الشخص نفسه وهي الحقيقية.

٧ ـ كان عرار كثيرا ما يلجأ في شعره الى أسلوب التهكم والسخرية ممن يحسبون انفسهم عظماء وهم في نظره من سقط المجتمع وأرادله ولذلك نراه كثيرا ما يسخر من هؤلاء ويثير حولهم النكات في أسلوب ساخر يخلو من التكلف او الصنعة في حين نرى حبه للعامة والفقراء ومجتمع النور المتواضع البسيط كبيرا لا يدانية حب ولذلك استحق وبجداره لقب «نصير المساكين والضعفاء والمظلومين».

٨ ـ واخيرا لا تخفى علينا عاطفة الشاعر التي تمثلت في:ـ

أ ـ الحزن واللوعة من خلال القصيدة على وفاة الهبر صديقه الوفي والرمز الدائم في شعره.

ب ـ كما تظهر من خلال القصيدة عاطفة الاعجاب بمجتمع النورو عاداته وتقاليده تلك العادات التي كان عرار دائم الحنين اليها والتعلق بها كلما ابتعد عن مجتمعه المفضل ذاك.

ج ـ ثم هناك عاطفة النقمة والثورة على أوضاع زمانه وما يعتريها من التصدع والانحلال.

د ـ واخيرا تظهر عند الشاعر عاطفة الايمان والاطمئنان لعدالة السماء ومساواتها بين جميع الناس تماما كما هو الحال في مدينته الفاضلة التي كثيرا ما تمنى ان يكون مجتمعه ووطنه الكبير مثلها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السادس

محمود درويش

«يوميات جرح فلسطيني»
نحن في حل من التذكار

محمود درويش

حياتـــه:ـ

ولد الشاعر محمود درويش «عاشق فلسطين» سنة ١٩٤١م في قريته «البروة» القريبة من مدينة عكا الساحلية وقضى طفولته الاولى فيها بين اترابه متمتعا بطبيعتها الجميلة الساحرة التي تبعث الامن والاطمئنان في النفس بما يتميز به جو القرية الوادعة من الهدوء والاستقرار والبعد عن صخب المدينة وتعقيداتها.

غير ان هذه الطفولة لم يكتب لها من العمر طويلا حتى نكبت بالاحتلال والاغتصاب سنة ١٩٤٨م مما اضطر شاعرنا الرحيل الى لبنان مع بعض اهله وذويه ولم يلبث هناك الا قليلا حتى عاد سرا الى مسقط رأسه ليفجع بما رآه من اطلالها ورسومها بعد أن دمرها العدو الغاصب مما كان له اكبر الاثر في نفسه وجعل هذا الحدث راسخا في ذاكرته حيا في ضميره، حاضرا في خياله مع الكبر وفي الشتات على حد سواء.

وقد دفعه ما حل بقريته الى الاستقرار في حيفا حتى سنة ١٩٦٠ حيث وضـع اول دواوينه الشعرية تحت عنوان «عصافير بلا أجنحة» وقد خصصه لافريقيا ونضالها التحرري وكان يعكس من خلاله ما يلاقيه شعبه من البلاء تحت الاحتلال غير انه لم يستطع البوح بذلك مباشرة.

ومع اشتداد عوده، ونضوج شعره وشاعريته بدأت متاعبه مع المحتل الغاصب تكبر وتتعدد فقد سجن عدة مرات، كما وضع نتاجه تحت الرقابة، وفي سنة ١٩٦٨ شارك في مهرجان الشباب الذي انعقد في «صوفيا» ضمن اعضاء الوفد الاسرائيلي مما اثار عليه زوبعة فلسطينية وعربية عامة غير ان دفاعه المقنع عن تصرفه هذا جعل الكثيرين يتراجعون ويتقبلون وجهة نظره الوطنية تلك.

وفي سنة ١٩٧٠ سافر الى موسكو ومنها انتقل الى القاهرة ومع اشتداد سياسة كبت الحريات، وخنق الاصوات الوطنية في فلسطين المحتلة ووضعه شخصيا تحت المراقبة

---

(١) عقب حرب ١٩٦٧ اوقفت السلطات الاسرائيلية الشاعر كما صادرت ديوانه «اخر الليل».

الدائمة والاقامة الجبرية المتواصلة[1] رحل الشاعر عن فلسطين سنة ١٩٧١ الى لبنان وعمل هناك في مركز الابحاث والدراسات الفلسطينية التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية ولكن لم يلبث ان مل العمل الروتيني وانصرف الى نظم الشعر بحيث تولت دار العودة البيروتية اصدار اثاره كاملة ابتداء من عام ١٩٧١م.

الشعر «قيمته ووظيفته» في نظر محمود درويش:

يكتسب الشعر قيمته من وظيفته التي حددها محمود درويش، وهي نشره للوعي بين العامة والخاصة على حد سواء فالشعر يجب ان يفهمه البسطاء ويتعرفوا على اهدافه ومراميه بسهولة ويسر. ولذلك نراه يلخص هذا المفهوم بقوله:

«قصائدنا بلا لون بلا طعم.. بلا صوت
اذا لم تحمل المصباح من بيت الى بيت
وان لم يفهم «البسطا» معانيها
فاولى ان نذريها
ونخلد نحن للصمت[1]

فهذه في نظر الشاعر وظيفة الشعر ومنها يكتسب قيمته والا فلن يستحق الخلود وعلى قائليه ان يلتزموا الصمت، فعلى الشعر ان ينقل المصباح ـ الوعي ـ من بيت الى بيت حتى يعم الوعي جميع افراد المجتمع دون استثناء.

ولذلك نرى الشاعر ينتقل في ديوانه «اوراق الزيتون» الذي وضعه عام ١٩٦٤ من مرحلة الحزن والبكاء والشكوى الى مرحلة جديدة تتميز بالغضب والالتصاق بالارض والدعوة الى الوحدة والتضامن والصمود وقد تبلور هذا النهج الجديد عند الشاعر في ديوانه «عاشق من فلسطين» الذي وضعه عام ١٩٦٦م وهو في السجن.

الارض «قيمتها ورموزها» عند محمود درويش:

حظي محمود درويش من بين شعراء الارض المحتلة بشكل خاص منذ اواخر الستينات بمكانة مرموقة ومنزلة رفيعة في عالم الشعر الوطني المقاوم وانزل مكانا في

---

(١) عقب حرب ١٩٦٧ اوقفت السلطات الاسرائيلة الشاعر كما صادرت ديوانه «اخر الليل».
(٢) «محمود درويش» أوراق الزيتون.

مستوى كبار الادباء، ولعل هذا الحب وهذا التقدير هو ما دفعه الى كتابة مقالة تحت عنوان «انقذونا» من هذا الحب القاسي فقد احتفى به العالم العربي بكل مؤسساته الامر الذي دفعه الى توجيه مقالته تلك الى النقاد والادباء كي يلتزموا الموضوعية وعدم المغالاة في هذا الحب والتقدير.

وقد نال محمود درويش، وغيره من ابرز شعراء الارض المحتلة، هذه المنزلة الرفيعة بسبب موقفهم من الارض والمكانة السامية والمقدسة التي انزلوها في اشعارهم وكتاباتهم بعامة حتى لقد اصبحت قضية الارض في نظرهم «.... مرتبطة بقضية النضال الذي يزيد المقاومون الفلسطينيون مآله توضيحا...»[1].

فالارض كما عبر عنها محمود درويش ليست تلك المساحة الجغرافية بجبالها وسهولها وكرومها «ليس المكان مساحة فحسب انه حالة نفسية ايضا ولا الشجر شجر انه اضلاع الطفولة»[2] فهي تعني عنده ساحة صراع ومستقبل، ولذلك يورد الشاعر الارض بكافة مترادفاتها وكلماتها واسمائها ونباتها لتعني شيئا واحدا «الارض»، فهو يورد الفاظا من مثل (الثرى، الطين، التراب، السنديان، البذرة، العشب، القمح، الكروم، النهر، القبرة، البساتين، الجبل، اقطف، الماء، الشجر، القيثارة... وغير ذلك من الالفاظ والمسميات التي تنتهي كلها الى معنى واحد هو الارض التي اخلص لها الشاعر ودافع عنها فهي عنده تحتمل مضامين عدة، ودلالات كثيرة).

لم تعد الارض في نظر محمود درويش مجرد منبع للخصب والثراء والكرامة الانسانية فحسب بل اصبحت تعني الماضي والحاضر والمستقبل فهي تجسيد مادي ومعنوي للسعادة وهي الجذور التاريخية للناس فهي ميراث الاجداد المقدس الذي يوجب الدفاع عنه والموت في سبيله.

بهذا المفهوم اصبحت علاقة الانسان بالارض علاقة واحدة مهما تعددت اشكالها فهي ذلك الشيء الجميل وهو ذلك العاشق المبهور دائما فقد اصبحت الارض كائنا حيا يشعر ويتفاعل فهي تتألم من العدو، وتبكي من الغاصب، وتدعو النازحين للعودة اليها، وتدعو القائمين للتمسك بها.

أوطاننا ترنو لنا في لهفة وتكاد ان تبكي علينا الاربع

انها ذلك الفردوس المفقود موطن السعادة، والذكريات والمقدسات، والكرامة.

---

(١) عبد اللطيف اللعبي، شعر النضال الفلسطيني، ص ١٩.
(٢) محمود درويش «يوميات الحزن العادي».

ومع تطور مفهوم الرمز عند الشاعر اصبحت الارض تعني الهوية الفلسطينية التي لا بديل عنها وان الالتصاق بها وجه من وجوه النضال اليومي للشعب ولذلك اصبحت الارض الوجه الآخر للانسان فهي «امتداده المكاني وجزؤه المكمل الآخر..»[1] فهي تجسيد واحتواء للهوية الفلسطينية وهي رمز الحق والحياة والبقاء والمستقبل.

فالارض هي الهوية والالتصاق بها اصبح صوفيا وحلوليا:

نحن في حل من التذكار
فالكرمل فينا
وعلى اهدابنا عشب الجليل
لا تقولي: ليتنا نركض كالنهر اليها
لا تقولي:
نحن في لحم بلادي.. هي فينا[2]

نلاحظ هنا هذا الاندماج والتلاحم والتوحد بين الانسان والارض فنحن في لحمها وهي فينا ممزوجة ولذلك لا انفصال ولا بعاد بيننا.

وهكذا اصبح حلول الانسان في الارض والاتحاد معها ركيزة كيانه ووجوده واكسبها بعدا رمزيا جديدا.

فالارض هنا هي «الام والحبيبة» التي يلجأ اليها الانسان لتحنو عليه وتعطف على وجوده ولذلك اصبح التلاحم والاتحاد معها امنية للشاعر بل انه يتمنى الاندماج والحلول في اصغر وابسط مظاهرها فان سجن فالسجن للجسد بينما المشاعر والادراكات والروح حرة تعانق الازهار والاعشاب:

ونسيت نفسي في خطى الايقاع
ثلثي قابع في السجن
والثلثان في عشب الحديقة[3]

بل انه كان يرى ان المبرر الوحيد لوجود الانسان ليس الا ليصبح ذرة من ذراتها ويذوب فيها كي يستطيع معانقة ارضه السليبة. من هنا كان التلاحم والحلول بين الانسان والارض يعني عند الشاعر عدة اشياء فالالتجاء الى الارض والاتحاد معها يعني ان الانسان فاقد للحنان والاطمئنان، وهو يعني من جهة اخرى وحدانية الواقع والمصير لكليهما، كما انه

---

(١) ادونيس، الشعر والثورة، مجلة الهدف: كانون اول ١٩٦٩.
(٢) محمود درويش «يوميات جرح فلسطيني»
(٣) محمود درويش، «العصافير تموت في الجليل».

يعني من جهة ثالثة ان الارض تشكل البديل العاطفي للانسان عن شقاء الحاضر وآلامه المتمثل في المحتل المغتصب ولذلك نلاحظ التفاعلات النفسية القوية بين الانسان والارض فهي الأم الثاكلة وهو العاشق المولّه والمحب المتمسك بمحبوبته:

يا صخرة صلّى عليها وآلدي لتصون ثائر
انا لن ابيعك باللآلي
انا لن اسافر... لن اسافر... لن اسافر(١)

من هنا يظهر هذا التلاحم والتوحد والحلول ما بين الانسان والارض، كما ان عطف الام ـ الارض ـ وحنانها يدفعان الابن ـ الانسان ـ الى التشبث بها والتمسك بترابها والدفاع عنها ضد المحتلين والمغتصبين فهو متمسك بها ماضيا وحاضرا ومستقبلا يستعذب الالم في سبيل الدفاع عنها وهذا يعكس لنا شرعية الدفاع عنها، وعدالة قضيتها، فهناك التحام ووفاء متبادل هذا الوفاء والتلاحم يحول بين الانسان وبين الابتعاد عن ارضه.

آهِ يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبة
وانا لست مسافر
انني العاشق والارض حبيبة(٢)

وهكذا نرى ان محمود درويش قد وظف موضوع حب الانسان للارض لينتهي الى النضال المسلح حفاظا على الارض ـ الحبيبة ـ في اطار من الهيام والحب الصوفي ومن الاتحاد والحلول، فتداخل الانسان مع مظاهر الطبيعة المختلفة يشكل ضمانا لخلوده في هذه الارض والصمود في وجه الغاصب فحلول الفلسطيني في ابسط شيء على ارض فلسطين كالزهرة والجدول أو النهر مثلا يعتبر مقاومة وافشالا لمخططات الغاصب المحتل. ولذلك جعل محمود درويش مسألة حب الارض والحلول فيها دعامة وركيزة اساسية للعمل الثوري وذلك من خلال ابرازه للعلاقة التاريخية واللصيقة بين الفلسطيني وارضه.

أبي من اسرة المحراث
لا من سادة نجب
وجدي كان فلاحا
بلا حسب ولا نسب(٣)

---

(١) محمود درويش، «عاشق من فلسطين».
(٢) محمود درويش «يوميات جرح فلسطيني».
(٣) محمود درويش، «اوراق الزيتون».

فحسب الانسان ونسبه هي الارض فقط والالتصاق بها، فالمحراث دلالة الزراعة والفلاحة وعلامة على التصاق الفلسطيني بأرضه وارتباط حياته ومستقبله بها وعدم انقطاع الصلة بينه وبينها على مر الزمان. وقد انعكس هذا التوحد بين الانسان والارض ازاء الاستعمار في اعتناء الفلسطيني بأرضه ودفاعه عنها وحلوله فيها:

الارض والفلاح والاحرار قل لي: كيف تقهر؟

هذي الاقانيم الثلاثة كيف تقهر؟(1)

فالارض هي الركيزة الاولى والاساسية بعد الزراعة ـ الالتصاق بالارض ـ والعمل الثوري ـ الاحرار ـ في مقاومة المحتل، فالنضال هو دفاع عن الوجود الانساني ذاته وهنا تصبح الشهادة في سبيل الوطن نماء وازدهارا وفرحا لا حزنا وهكذا تكتمل الدورة التي يرسمها الشاعر للارض والانسان، فالانسان يعيش على الارض ويلتصق بها، ثم يموت دفاعا عنها فيروي بدمه الارض فتخصب وتزداد نماء فتنبت العشب والانسان من جديد فالدم دلالة فرح ورمز الخصب والنماء لانه يعيد الحياة الى الارض والانسان معا.

لقد تحول الدين عند محمود درويش بفضل اعتماده على العقل من دين تعبد وشعائر الى دين قتال وثورة واستشهاد، فهو يرفض كل ما لا يتفق مع العقل من غيبيات وغيرها وتأتي هذه الحملة على الدين التعبدي الشعائري من جانب الشاعر لان المغتصبين قد استغلوا الدين هذا لاثبات شرعية اغتصابهم للارض الفلسطينية فهم ـ شعب الله المختار ـ وتلك ـ ارض الميعاد ـ ولهم الحق فيها بفضل ـ الوعد المقدس ـ، هذا بالاضافة الى ان محمود درويش كان عضوا في كتلة «راكاح» الشيوعية:

انا من قرية عزلاء منسية

شوارعها بلا اسماء

وكل رجالها في الحقل والمحجر

يحبون الشيوعية(2).

ولذلك نراه دائما يعلي من شأن الارض وكل ما يتصل بها من الفلاح، والمحراث والحقل، والمحجر، والقمح، والمنجل... الخ فالارض عنده تنادي وتحث اللاجيء كي يعود اليها ليبنيها ويعمرها من جديد بعد ان خربها العدو فالشاعر لا يفصل بين معاناة الفلسطينيين في الداخل ومعاناتهم في الشتات، وعليه كان محمود درويش المعبر عن مأساة الجيل الجديد من الفلسطينيين في الشتات الذين لا يعرفون ارضهم وبلادهم ويدعوهم الى التمسك بالارض والدفاع عنها بل والذوبان فيها:

---

(1) محمود درويش «اوراق الزيتون»

(2) محمود درويش «اوراق الزيتون»

بلادي بعيـدة
تبخر مني ثراها
الى داخلـــي
لا اراهـــا[1]

فالارض (الام الحبيبة) هي الحب الوحيد، والهم الوحيد، والملاذ الوحيد للفلسطيني وان الفلسطيني يشعر بالغربة والظلم حتى وان وجد على ارضه وفي وطنه فهو مقيد دائما ومضطهد باستمرار في حين يرى الغريب الغاصب المتحكم والحاكم المطلق ولذلك نرى الشاعر يعبر عن سخطه وغضبه لهذا الوضع المقلوب.

سجين في بلادي
بـلا ارض
بلا علَـــمٍ
بلا بيـــت[2]

انظر الى هذا التناقض العجيب الذي يعيشه الفلسطيني على أرضه فهو مسجون في بلاده دون أن يملك ارضه ودون عَلمٍ «الاستقلال والحرية» فهو مسلوب الحرية وبلا بيت «الامن والطمأنينة والاستقرار» فهو ايضا مسلوب الامن والاستقرار في ارضه ولذلك كان النضال المسلح جوهر شعر المقاومة فالارض رمز الوطن وهي لا تُفهم الا باعتبار العودة والتحرير من هنا بدأ شعر المقاومة يعتمد الارض للرد على الدعاية الاسرائيلية فالارض هي الهوية، وهي الأم الحانية، وهي الحبيبة المسبيّة لتثير في نفس حبيبها الحمية والنخوة والثأر من مغتصبها.

وبالاجمال فان شعر الارض المحتلة بصفة عامة يستخدم الرمز القريب دون ايغال او مغالاة يسلمه الى الغموض والتعقيد، كما ان هذا الشعر بالاضافة الى دفاعه عن الشخصية العربية بصفة عامة والانسان الفلسطيني بصفة خاصة فقد اعتمد الارض بأبعادها الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل). محور قصائده، وميدان شعرائه. ولذلك نلاحظ ان هذا الشعر تسيطر عليه نزعة الحنين تارة والثورة تارة اخرى فهو يتعامل مع القضية المركزية «الارض» بروح تغلب عليها القومية الانسانية العامة آخذا بالواقعية الاشتراكية.

وفق المفـاهيم السابقة مجتمعة نستطيع دراسة قصيدة الشاعر في «يوميات جرح فلسطيني» تحت عنوان ـ نحن في حل من التذكار فالكرمل فينا ـ

(١) محمود درويش «أحبك اولا أحبك»

(٢) محمود درويش «عاشق من فلسطين»

اثـــاره:

بالرغم من ان الشاعر لم يزل فياضا معطاء بشعره الوطني المقاوم الا انه بالامكان تعداد مجموعة من الدواوين التي اصدرها حتى الان والتي كان من أولها:ـ

١ ـ ديوان «عصافير بلا اجنحة» ١٩٦٠
٢ ـ ديوان «اوراق الزيتـون» ١٩٦٤
٣ ـ ديوان «عاشق من فلسطين» ١٩٦٦
٤ ـ ديوان «آخر الليـــل» ١٩٦٧ صادرته السلطات الاسرائيلية
٥ ـ ديوان «يوميات جرح فلسطيني» ١٩٦٩
٦ ـ ديوان «العصافير تموت في الجليل» ١٩٧٠
٧ ـ ديوان «حبيبتي تنهض من نومها» ١٩٧٠
٨ ـ ديوان «الكتابة على ضوء بندقية» ١٩٧٠
٩ ـ ديوان «اعراس» ١٩٧٧
١٠ ـ «شيء عن الوطن» ١٩٧١ نثر
١١ ـ «الحزن العادي» ١٩٧٣ نثر

وله ايضا «محالة رقم (٧) وكذلك «احبك او لا أحبك» و «اغنيات للوطن» وكذلك «ديوانه المتكامل».

يوميات جرح فلسطيني

(١)

نحن في حل من التذكار
فالكرمل فينا
وعلى اهدابنا عشب الجليل
لا تقولي: ليتنا نركض كالنهر اليها،
لا تقولـــي
نحن في لحم بلادي.. هي فينا

(٢)

لم نكن قبل حزيران كافراخ الحمام
ولذا، لم يتفتت حبنا بين السلاسل
نحن يا اختاه، من عشرين عـام
نحن لا نكتب اشعاراً،
ولكنا نقاتل

(٣)

ذلك الظل الذي يسقط في عينيك
شيطان إله
جاء من شهر حزيران
لكي يعصب بالشمس الجباه
انه لون شهيد
انه طعم صلاة
انه يقتل او يحيى،
وفي الحالين! آه !

(٤)

اوّلُ الليل على عينيك، كان
في فؤادي، قطرةٌ من آخر الليل الطويل
والذي يجمعنا، الساعة، في هذا المكان
شارعُ العــودة
مِنْ عَصْر الدُّبولْ

(٥)

صوتك الليلةَ،
سكينٌ وجرحٌ وضمادُ
ونعاس جاء من صمت الضحايا
اين اهلي؟
خرجوا من خيمة المنفى، وعادوا
مرة اخرى سبايا!

(٦)

كلمات الحب لم تصدأ، ولكن الحبيب
واقعٌ في الاسر ـ يا حبي الذي حمَّلني
شرفاتٍ خلعتها الريحْ..
اعتابَ بيوت
وذنوب.
لم يسع قلبي سوى عينيك،
في يوم من الأيام،
والآن اغتني بالوطن!

(٧)

وعرفنا ما لذي يجعل صوت القُبَّرهْ
خنجراً يلمع في وجه الغزاة
وعرفنا ماالذي يجعلُ صمت المقبرهْ
مهرجاناً.. وبساتين حياة!

(٨)

عندما كنت تغنين، رايت الشرفات
تهجر الجدران
والساحة تمتد إلى خصر الجبل
لم نكن نسمع موسيقى،
ولا نبصر لون الكلمات
كان في الغرفة مليون بطل!

(٩)

في دمي، من وجهه، صيفٌ
ونبض مستعارُ:
عدتُ خجلان إلى البيت،
فقد خرَّ على جرحي.. شهيدا
كان ماوى ليلة الميلاد،
كان الانتظار
وانا اقطف من ذكراه.. عيدا!

(١٠)

الندى والنار عيناه،
إذا ازددت اقتراباً منه غنّى
وتَبخّرتُ على ساعده لحظة صمت، وصلاه.
آه سميه كما شئت شهيدا
غادر الكوخ فتى
ثم اتى، لما اتى
وجه إله!

(١١)

هذه الأرض التي تمتصُّ جلد الشهداء
تَعِدُ الصيف بقمح وكواكبْ
فاعبديها!
نحن في احشائها ملح وماء
وعلى احضانها جرح.. يحارب

(١٢)

دمعتي في الحلق، يا اخت،
وفي عينيَّ نار
وتحررت من الشكوى على باب الخليفة
كل من ماتوا
ومن سوف يموتون على باب النهار
عانقوني، صنعوا مني.. قذيفة!

(١٣)

منزل الأحباب مهجور،
وبأفا تُرجمتْ حتى النخاعْ
والتي تبحث عني
لم تجد مني سوى جبهتها
اتركي لي كل هذا الموت، يا اخت.
اتركي هذا الضياع
فانا اضفره نجماً على نكبتها

(١٤)
آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبه
وانا لست مسافر
إنني العاشق والأرض حبيبة!

(١٥)
وإذا استرسلت في الذكرى!
نما في جبهتي عشب الندمْ
وتحسرت على شيء بعيدْ
وإذا استسلمت للشوق،
تبينت اساطير العبيد
وانا آثرت ان اجعل من صوتي حصاة
ومن الصخر نغم!

(١٦)
جبهتي لا تحمل الظل،
وظلي لا اراه
وانا ابصق في الجرح الذي
لا يشعل الليل جباه!
خبئي الدمعة للعيد
فلن نبكي سوى من فرح
وَلْنُسَمِّ الموت في الساحة
عرساً.. وحياه!

(١٧)
وترعرعتُ على الجرح، وما قلت لأمي
ما الذي يجعلها في الليل خيمة
انا ما ضيَّعتُ ينبوعي وعنواني واسمي
ولذا ابصرت في اسمالها
مليون نجمه!

(١٨)

رايتي سوداءُ،
والميناء تابوتٌ
وظهري قنطرهْ
يا خريف العالم المنهار فينا
يا ربيع العالم المولود فينا
زهرتي حمراءُ،
والميناء مفتوح،
وقلبي شجره!

(١٩)

لغتي صوت خرير الماء
في نهر الزوابغ
ومرايا الشمس والحنطة
في ساحة الحرب
ربما اخطات في التعبير احياناً
ولكنْ كنت ـ لا اخجل ـ رائع
عندما استبدلت بالقاموس قلبي!

(٢٠)

كان لا بد من الأعداء
كي نعرف انا توامان!
كان لا بد من الريح
لكي نسكن جذع السنديان!
ولو ان السيد المصلوب لم يكبر على عرش الصليب
ظل طفلاً ضائع الجرح.. جبان.

(٢١)

لك عندي كلمهْ
لم اقلها بعد،
فالخلل على الشرفة يحتل القمرْ

وبلادي ملحمة
كنت فيها عازفاً.. صرت وترْ!

(٢٢)
عالِمُ الآثار مشغول بتحليل الحجارةْ
إنه يبحث عن عينيه في ردم الأساطير
لكي يثبت انني:
عابر في الدرب لا عينين لي!
لا حرف في سفر الحضارةْ!
وانا ازرع اشجاري، على مهلي،
وعن حبي اغني!

(٢٣)
غيمة الصيف التي.. يحملها ظهر الهزيمةْ
عَلَّقَتْ نسل السلاطين
على حبل السراب
وانا المقتول والمولود في ليل الجريمة
ها انا ازددت التصاقاً.. بالتراب!

(٢٤)
آن لي ان ابدل اللفظة بالفعل، وآنْ
لي ان اثبت حبي للثرى والقُبَّرةْ
فالعصا تفترس القيثار في ها الزمان
وانا اصفَرُّ في المرآة،
مذ لاحت ورائي شجرةْ!

بالنظر الى مفهوم الارض عند محمود درويش والى الرموز التي يستعين في هذا الصدد، وبالنظر الى مفهوم الشعر عنده ووظيفته الاساسية التي تقوم على نشر الوعي بين ابناء الشعب عامة، بناء على كل ما تقدم يمكننا تحليل قصيدته ودراستها على النحو التالي:-

١ ـ الفقرة الاولى: الشاعر هنا يرمز الى الارض على انها الهوية الفلسطينية التي تعطي الفرد جنسيته ونسبه وبدونها يصبح الفرد والشعب من بعده لا هوية له مجهول الاصل والنسب، ولذلك كانت الارض هنا الوجه الثاني للانسان وهو الجزء المكمل له فهي حاضره ومستقبله وماضيه الذي لا يمكن للانسان بأي حال من الاحوال ان يتنكر لها او يتخلى عنها لان في ذلك تخليا عن الانسان نفسه وانكارا لذاته ولذلك فالانسان لا حاجة له بتذكر الكرمل لان التذكر يكون للشيء البعيد بينما الكرمل ـ الارض ـ ليست بعيده فهي فينا وتعيش معنا ونعيش معها ـ التمازج والتلاحم ما بين الانسان والارض ـ وان ما يظهر من رموش الانسان ليس الا عشب الجليل فنحن نحمل الارض والوطن في عيوننا فهو اعز ما نملك واغلى ما نعز وبما ان الارض ممزوجة بدمائنا ومتحدة معنا فلا تقولي تعال لنذهب اليها فلا داعي لذلك لاننا متحدون في لحمها وهي ممزوجة فينا (نلاحظ انه اعتبر الارض كالانسان عندما جعل لها لحما ودما وانظر الى هذا التمازج بينهما فنحن في لحمها وهي فينا فلا فرق بيننا ولذلك لا داعي للتذكر كما لا داعي كي نركض اليها فهناك تداخل وتمازج ما بين الانسان والارض بل ومختلف مظاهر الطبيعة فالانسان يذوب في الارض التي تعني له الام والحبيبة).

٢ ـ الفقرة الثانية: يخاطب الشاعر نفسه لانه يخاطب الارض التي امتزج بها فأصبحا كالشخص الواحد ولذلك يخاطبها قائلا: لم نكن أيتها الارض قبل هزيمة حزيران سنة ١٩٦٧م كأفراخ الحمام زغب الحواصل لا نملك من امرنا شيئا او ضعفاء بل كنا اقوياء ومرتبطين بكِ ـ بالارض ارتباطا قويا ومتمسكين بك بقوة ونتيجة لذلك لم نضعف ولم نتخل عنك ولم ننفصل عنكِ بمجرد وقوع الهزيمة النكراء تلك التي اراد بها العدو فصلنا عنك وابعادنا عن احضانك (الشاعر هنا يشبه الارض بالام الحنون التي تعطف على ابنائها وتحنو عليهم وهم متمسكون بها ويحبها ويرفضون التخلي او الابتعاد عنها).

ولذلك نراه يكشف لنا عن جهود شعراء الارض المحتلة خلال عشرين سنة خلت فهم رغم مرور هذا الزمن الطويل على وقوعهم تحت الاحتلال لم يضعفوا ولم يستسلموا ولم يكتبوا اشعارا للهو او التسلية او البكاء والشكوى بل كانوا يقاتلون جنبا الى جنب مع ابناء الشعب المتمسك بأرضه ووطنه.

(الشاعر هنا يبين ان ما يفعله الشعر المقاوم الذي يثير الحمية ويزرع الامل وينشر الوعي بين ابناء الشعب لا يقل اهمية عن القتال في ساحة المعركة فهو يعكس لنا تلك المرحلة التي وصل اليها الشعر المقاوم فلم يعد ندبا وبكاء كما كان حاله في الماضي بل تعدى تلك المرحلة لتصبح الكلمة رديفا للبندقية ومشاركة لها في مواجهة العدو).

٣ ـ الفقرة الثانية: يشير في هذه الفقرة الى ما احدثته هزيمة حزيران سنة ١٩٦٧ في النفس الفلسطينية فقد احدثت تلك الهزيمة صدمة قوية اعادت الوعي الى النفس الفلسطينية، فقبلها كان اليأس يسيطر على النفس المكتفية بالبكاء والحزن والاسى ولما استيقظت تلك النفس على وقع الهزيمة وضياع بقية الارض الفلسطينية تأكد لديها ان البكاء لا يجدي نفعا ولا يحرر أرضا بل هو مدعاة الى المزيد من الهزائم ولذلك لا بد من الخروج من هذه المرحلة المترهلة والانتقال الى مرحلة العمل والقوة والتحدي والاعتماد على النفس والثقة بها والتطلع نحو الحرية والاستقلال ولذلك نرى الشاعر يكثر في هذه الفقرة من الالفاظ التي تبشر بالتغير فهناك الشمس، والشهيد والصلاة فهذه الالفاظ بالاضافة الى دلالتها على العمل الجاد فهي تدل ايضا على قدسية هذا العمل واهميته ولذلك كانت دلالة الموت والحياة في نظر الشاعر واحدة لان الموت في سبيل الوطن يؤدي الى الحياة الحرة الكريمة ولان الموت من جهة ثالثة يمثل عودة الانسان الى رحم امه الحبيبة الحانية ـ الارض ـ.

فالشهادة هي الحياة ولا حياة دون ثمن وان وجدت الحياة دون شهادة او جهاد فهي ليست حياة حقيقية وانما هي نوع من الاستعباد او الذل.

٤ ـ الفقرة الرابعة: عصر الذبول: هو زمن البكاء والحزن والاستخذاء الذي سبق هزيمة حزيران. والمقصود بأول الليل: بداية عصر الذل والاستسلام. والمقصود بآخر الليل الطويل: هو نهاية ذاك العصر وظهور عصر التحدي والمقاومة وانتهاء عصر البكاء ولذلك يقول ان الذي يجمعه بأرضه ووطنه في هذا العصر هو شارع العودة فهما في شارع واحد وهذا الشارع هو طريق العودة والتحرر ففي هذا الطريق اجتمعا وسيمضيان حتى النهاية حيث الاستقلال وطرد الغزاة.

(الشاعر هنا متفائل وواثق بالشعب والمستقبل وبأن عصر الذل والانحدار والاندحار قد ولى الى غير رجعة بسبب وعي الشعب وصحوته بعد الهزيمة).

٥ ـ الفقرة الخامسة: يستوحي الشاعر أحداث هذه الفقرة من حياته ومأساته الشخصية فهو الذي خرج الى لبنان عقب مأساة ١٩٤٨ ثم عاد الى بلدته «البروة» ليجدها قد دمرت وهدمت، ولذلك يبدأ تساؤل الانسان هنا عن اهله وذويه اين ذهبوا بعد هذا الدمار الذي حل بمصدر العطف والحنان لديهم؟؟.

لقد خرجوا الى المنفى ثم عادوا اسرى وسبايا ولذلك يجعل الشاعر من نفسه شخصية الانسان الفلسطيني عامة فقد اصبح محمود درويش لاجئا في وطنه بعد تدمير قريته بحيث لجأ الى احدى القرى المجاورة لقريته وكان عندما يسأل قائلا متى ستعود الى قريتنا؟؟ كانوا يلهونه ويضحكون عليه ببعض الاجوبة.

ولذلك سنلاحظ ان الصوت هنا اصبح سكينا يذبح وجرحا ينزف وضمادا يداوي ويشفي لان الصوت هو صوت الارض التي تنادي اهلها للتمسك بها وعدم تركها لقمة سائغة للعدو فكان صوتها كالسكين ولكنه يرحمهم فهم الاهل والاصحاب والاحباب بل انهم الابناء وهي الام الرؤوم ولكنها لا تريد لهم ان يصبحوا سبايا ومشردين في الخيام بل تريدهم ان يتمسكوا بها ويدافعوا عنها ولذلك كان صوتها يدوي في آذانهم قائلا اين اهلي؟؟ لانها لا تريدهم ان يبتعدوا عنها بالرغم من ان هذا الصوت جاء من بين الضحايا فالارض ثمنها غال والدفاع عنها يكلف الكثير من الضحايا وان الضحايا نفسها تنادي اهلها لاستكمال التحرير الذي ماتوا من اجله.

٦ ـ الفقرة السادسة: في هذه الفقرة يتحدث الشاعر عن ثورة الحب التي تعتمل في صدره للحبيب ـ للارض والوطن ـ وقد جسد الوطن في شكل فتاة ثم مزج بين قلبه وبين عيونها الساحرة فهو يعود الى التمازج والتلاحم بل والذوبان فيها بين الانسان ووطنه وارضه ولذلك فان حب الانسان لحبيبته ـ ارضه ـ لم يصدأ ولا يمكن ان ينقص بل انه في ازدياد مستمر غير ان الحبيب واقع في الاسر وتحت نير الاحتلال ولذلك نرى ان حبه العاصف لوطنه قد كلفه الكثير فقد خلع قلبه من صدره وارتكب في سبيله الذنوب الكثيرة ورغم ذلك فلا تراجع عن هذا الحب مهما كلف الامر وستكون النهاية التغني بهذا الوطن وقد اصبح حرا مستقلا.

٧ ـ الفقرة السابعة: ثم يكمل الشاعر حديثه قائلا: ان حبه العاصف لوطنه قد عرفه لماذا يصبح كل شيء في الوطن حربا على العدو حتى القبرة تصبح عدوا لهذا الغاصب تدافع عن وطنها، حتى المقابر تحارب العدو وتتنكر لوجوده (يريد الشاعر ان يثبت ان الطبيعة بكل مظاهرها وكل ما تشتمل عليه تحارب العدو لانه غريب عنها غاصب لخيراتها محارب لاهلها، فالارض ترفض المستعمر وترفض ان تنفصل عن ابنائها فالعدو غريب الوجه واليد واللسان في هذا الوطن ولذلك يحاربه كل شيء فيه من القبرة والانسان وحتى المقابر، هذا بالاضافة الى ان الشاعر يريد ان يرسم للعدو صورة واقعية وهي ان العدو يحاول بكل الطرق ان يقطع صلة الانسان بأرضه).

ولذلك نلاحظ ان المقابر تصبح بساتين للحياة والحرية لانها تحارب العدو الغريب وتكبر ابناءها الشرفاء وتحيي فيهم وقفتهم ضد العدو فالموت هنا ليس موتا وانما هو حياة جديدة وخلق جديد ومجتمع حر كريم.

٨ ـ الفقرة الثامنة: يتخيل الشاعر كيف ان الوطن يغني وهو يسمع غناءه فرحا مسرورا غير ان هذا الغناء ليس كالاغاني الاخرى انه غناء الاحرار ونشيد القوة والثورة على المحتل ولذلك عندما سمعه الشاعر رأى ان كل شيء قد تبدل وتغير فالشرفات ترقص فرحة والساحات تتسع الى اقصى مدى وكأنه لم يسمع قبل هذا الغناء موسيقى ولا لحنا وكأنه لم يسمع كلمات قبل هذا النشيد انه نشيد الحرية وهو النشيد الذي يعلن قرب الحرية والاستقلال وطرد المحتل وتخليص الارض من ظلمه واستعباده ولذلك نرى ان الشاعر يرسم الفرحة على جميع مظاهر الطبيعة بسبب هذه الصحوة التي بدأت في المجتمع اما زمن البكاء والاستخداء فلا نجد فرحا او سرورا او غناءا ولكن هذه الفقرة عكست جو الفرح هذا الذي سيطر على الانسان وعلى الطبيعة معا ولذلك تواجد في الغرفة ـ الوطن ـ مليون بطل حملوا على المحتل وقرروا محاربته وطرده.

٩ ـ الفقرة التاسعة: لا زال الشاعر يعلي من شأن الشهادة والشهيد ويرفع من شأن الدفاع عن الوطن فقد اصبحت ذكرى الشهادة عنده عيدا يحتفل به ليأخذ العبرة ويتعظ بمن سبقوه وسقطوا دفاعا عن الحق والوطن ليقتدي بهم ولذلك هو على موعد مع هؤلاء الشهداء ويرى نفسه خجلا ومحرجا من ان يعود الى بيته سالما بينما ودع اخاه شهيدا دفاعا عن الارض الحبيبة فهو لا يستطيع ان يحدق بنظره في الارض والوطن اكبارا له واجلالا لمنزلته وكذلك لان الانسان الذي يتقاعس في الدفاع عن ارضه ووطنه يخجل من نفسه ومن الآخرين ويصبح وكأنه قد تخلى عن ذاته وعن وطنه وان ما ينبض في عروقه ليس اصيلا وانما مستعار فلم يعد له حسب ولا نسب لأنه تقاعس في الدفاع عن وطنه وذاته.

الشاعر لا زال يمزج بين الحياة والموت «شهيد» «ميلاد» وذلك لما اوضحناه سابقا من ان الموت عنده حياة وبعث ونشور بل هو حياة للآخرين من ابناء شعبه وامته ولذلك ذكر عقب الشهادة والميلاد كلمة «عيد» ليؤكد للجميع ان الموت ليس حزنا وانما عيد وفرح ومسرة لان ما ينتج عنه هو حرية واستقلال وطرد للمحتل.

١٠ ـ الفقرة العاشرة: لا زال الشاعر في هذه الفقرة يؤكد المعنى الذي جاء به في الفقرة السابقة فالشهيد عيناه نار تحرق الاعداء وتحفز الاخرين من اخوته للمقاومة ثم هي ايضا ندى فيه الخير والبركة والرقة والخصب والنماء كما ان عينيه كما نلاحظ (نار وندى) من مظاهر الطبيعة فهو لازال يمزج بين الانسان والارض فهما شيء واحد

فالانسان حل في الارض والارض حلت فيه ولذلك اصبحت عيناه من مظاهر الطبيعة، ولزيادة وتوضيح معنى وأهمية الموت في سبيل الوطن يأتي بلفظ الصلاة ليبين انه موت مقدس ودفاع مقدس من اجل قضية مقدسة ولذلك بامكانك ان تسمي هذا الانسان الميت في سبيل وطنه ما شئت من الاسماء غير انه لا يخرج عن ان يكون شهيدا او وجه اله لان الله تعالى مع الحق ومع المظلومين فهذا الشهيد خرج من كوخه (ليبين انه كان يعيش حياته مستقرا آمنا مطمئنا) فتى يافعا صغيرا لا يعرف الظلم او الحقد (كناية عن الشعب الفلسطيني الذي كان آمنا مطمئنا في ارضه لا يعتدي على احد) ولكنه قضى في سبيل دفاعه عن هذا الكوخ البسيط الذي حسده عليه العدو المحتل ولذلك كان كل من قضى ومات هذه الميتة لا محـالة هو شهيد او نور ووجه الهي ساطع في سماء الظلم والهمجية.

١١ ـ الفقرة الحادية عشرة: ولذلك ما ان سقط هذا الشهيد على ارض وطنه الآمن الوادع المستقر حتى احتضنته الارض الام الحنون وضمته الى صدرها فهي تستقبل ابناءها وترفض الغريب المحتل، وما ان سقط هذا الشهيد على صدر امه حتى استبشرت خيرا ووعدت ابناءها بالخير العميم (القمح والكواكب) ولذلك يتوجب علينا ان ندافع عن الارض لاننا ندافع عن أمننا ومصدر حناننا فنحن نذوب في داخلها ونلتحم معها ونحارب من اجلها.

(الشاعر لا زال يردد وحدة الانسان والارض فهي كائن حي واتحاد الانسان معها يشكل ركيزة اساسية لكيانه ووجوده فهي هويته وماضيه وحاضره ومستقبله ولذلك اصبح الحلول فيها والاتحاد معها صوفيا فهي الام التي يلجأ اليها الانسان اذا فاجأته المصائب وفاجأه العدو فهناك تلاحم ووفاء متبادل بين الانسان والارض فنحن في احشائها ملح وماء وهي فينا).

١٢ ـ الفقرة الثانية عشرة: يصل الشاعر في هذه الفقرة الى قمة ثورته ودعوته التحررية ولذلك نراه يرفض اسلوب الحزن والبكاء والشكوى الذي كان سائدا في الماضي لانه ثبت واقعيا وتاريخيا ان الشكوى لا تنصف المظلوم فلا بد من مواجهة القوة بالقوة فلقد استنتج الشعب الفلسطيني ان استجداء العدو لارجاع الارض وانصاف المظلومين والتوقف عن العسف والظلم هذا كله لا يزيد المصيبة الا استمرارا ولا يضيف إلى المشكلة الا تعقيدا ويعطي العدو فرصة الاستخفاف بالشعب والاستهتار بارادته مما يزيد في طمعه وظلمه، ولذلك فان كل من ماتوا دفاعا عن الارض والعرض اعطونا المثل والعبرة والنتيجة النهائية وهي ان الارض والانسان لن يتحررا الا بالقوة والتخلي عن جميع مظاهر الضعف والفرقة ولذلك كان الدرس الذي استفاده الشاعر ممن سبقوه

هو سيره على دربهم والاقتداء بهم وبنهجهم فهو السبيل الوحيد للاستقلال والحرية فهؤلاء الذين استشهدوا على ابواب الحرية والاستقلال لا بد لهم في النهاية ان يفتحوه ويدخلوا منه الى الاستقلال (الشاعر هنا يشير الى الاسلوب الذي اتبعته حركة المقاومة الفلسطينية خلال الخمسينات وماقبلها وهو اسلوب الشكوى والتظلم والحزن والبكاء بحيث اثبت هذا الاسلوب عقمه وفشله في التحرير والعودة ولذلك استعمل لفظ ـ الخليفة ـ ليشير الى النمط العربي التقليدي في التظلم والشكوى على ابواب الولاة والخلفاء في الماضي فهو يوضح للجميع ان هذا الاسلوب العربي القديم قد اثبت عقمه وعليه فلا بد من اتباع اسلوب الشهادة والفداء لوضع حد للاحتلال ولمعاناة الشعب).

١٣ ـ الفقرة الثالثة عشرة: في هذه الفقرة تناول الشاعر موضوع اللغة العربية واهميتها في هذا الصراع حول الارض فاللغة تعتبر من المقومات الاساسية للشعب الفلسطيني فهي ملازمة له، ولا تنفصل عنها ولذلك فشلت جميع الغزوات التي تعرضت لها فلسطين منذ القدم في محو اللغة القومية للشعب الفلسطيني ولذلك اصبح من الطبيعي ان تفشل جميع جهود المحتلين في تهويد فلسطين لان اللغة العربية قد امتزجت بها ارضا وشجرا وسماء وعليه فان الانسان الذي يتخلى عن لغته القومية يكون قد تخلى عن ارضه ووطنه بل انه يكون قد تخلى عن ذاته فهو في ضياع وتشرذم وتفتت وصراع دائم مع ذاته فهذا هو الموت الحقيقي غير ان الشاعر يتلمس الامل والتفاؤل في النهاية ولذلك سيجعل من هذا الضياع والموت ميلادا وبعثا وحياة جديدة ـ لقد كان ذلك الضياع عندما كنا نعتمد اسلوب البكاء والشكوى اما اليوم وبعد ان سلكنا طريق الكفاح والشهادة فان هذا الضياع وهذا الموت لن يكون الا بعثا جديدا وحياة جديدة.

(الشاعر هنا لا زال يرمز الى الموت على انه بعث وحياة جديدة تماما كما هو موت المسيح الذي شاع في شعره وغيره من شعراء الارض الذين استخدموا الرمز التموزي في شعرهم فالموت عنده ما هو الا عودة الى رحم الام ـ الارض ـ وما سيتبع هذه العودة من ميلاد جديد).

١٤ ـ الفقرة الرابعة عشرة: لا زال في موضوعه الوحيد الا وهو علاقة الانسان بوطنه فالعلاقة بينهما ليست علاقة مسافر بحقيبته بل انها علاقة المحب بحبيبته المرتبط بها ارتباطا روحيا والذي لا يمكنه باية حال من الانفصال عنها فهذا التداخل والتوحد بين الانسان والارض يحول بينه وبين الرحيل عنها فالحبيبة تحفز الشاعر ـ الانسان ـ للدفاع عنها والنضال من اجلها كي لا يبتعد عنها كما ان الحبيبة ـ الارض ـ تعتبر تجسيدا لسعادة الانسان على ارضه المحررة هذا العشق الصوفي للارض نراه يتطور ليصبح الوفاء لها والتمسك بها والقتال والموت في سبيلها واجبا مقدسا وهدفا محببا.

١٥ ـ الفقرة الخامسة عشرة: لا زال الشاعر يلح على التمازج والتوحد والحلول ما بين الانسان والوطن فالعشب ينمو في جبهة الانسان والصوت الانساني حصاة من الارض، والنغم صخر.

فالشاعر هنا يوضح ان ذكرى الماضي من البكاء والشكوى لم تزرع في النفس الا الندم والحسرة لانها اوقات مضت دون كفاح ودون تحقيق ادنى شيء من الحرية ولذلك فان تذكر الماضي ليس فيه الا الندم والحسرة فلا فائدة من الماضي الا اخذ العبرة والعظة فقط ولا بد من التطلع الى المستقبل بتفاؤل وشوق للحرية بالكفاح والتمسك بالارض والالتحام معها.

كما ان للانسان اذا ما اكتفى بالتشوق والامل فلا بد ان يصبح عبدا ذليلا لان الامل والتشوق وحده لا يفيد ولنا في مرحلة نضالنا السابقة ـ مرحلة البكاء والشكوى ـ خير مثال على ذلك.

وعليه فاننا نرى الشاعر ـ الانسان ـ بعد ان أخذ العبرة من الماضي، نراه يتحول الى الكفاح دون ان يعدم الوسائل المختلفة لهذا النضال فكلمته ـ صوته ـ الثورية التي تثير الحمية والنخوة في نفوس الناس هذه الكلمة تفعل فعل القتال الحقيقي في العدو الغاصب لأن تلك الكلمات الثورية قوية الفاعلية والتأثير فهي على العدو نار وعلى المواطن نور ونغم رقيق عذب فهي تذيب الصخر وتجعله انغاما فلسطينية عذبه تدفع الثوار وتشجعهم في كفاحهم فكأنها انغام عسكرية ترافق الجيش المقاتل ففعلها عظيم واثرها اعظم.

١٦ ـ الفقرة السادسة عشرة: يصرح الشاعر في هذه الفقرة بمدلول الموت وبما يرمز اليه من الحياة والحرية والعيد ولذلك يخاطب امه ـ الارض ـ قائلا: خبئي الدمعة للعيد.

فما هو العيد؟؟ انه عيد الحرية والاستقلال وطرد المستعمر الدخيل، ولذلك يحرم الشاعر البكاء من الالم، الم الجهاد والقتال في مواجهة المستعمر، فلا يجوز البكاء الا اذا كان من شدة الفرحة والسرور الغامر الذي يعقب الانتصار، ولذلك لا يجوز الا ان نسمي الموت في ساحة الشرف والنضال والدفاع عن الارض ـ الام ـ الا باسمه الحقيقي فهو عرس وافراح وحياة جديدة للامة والارض. (الشاعر هنا يوضح ان حياة الانسان والارض تحت الاحتلال ليست حياة حقيقية بل إن الحياة الحقيقية هي حياة الحرية والاستقلال اما تحت الاحتلال فهي حياة ذل واستعباد وموت حقيقي)

ولذلك فان الجرح الذي يستحق الفخر والاكبار هو الجرح في مواجهة المحتل وفي سبيل الدفاع عن الارض فهو الجرح الذي يضيء ويبدد ظلام المستعمر الذي يفرضه على الانسان والارض.

١٧ ـ الفقرة السابعة عشرة: لقد عاش الشاعر طفولته في بلدته البروة ثم ما لبثت تلك الطفولة ان شردت الى لبنان ومن ثم الى بعض القرى القريبة من بلده لقد تفتحت عيناه منذ صغره على مأساة وطنه وجرح أمته النازف حتى الآن ولذلك يصف الخيمة التي تنصب للمشردين والنازحين ومن دمرت بيوتهم ـ مثل اهله واهل بلدته البروة التي دمرت على يد العدو وغيرهم من ابناء وطنه ـ بأنها أمه لأنها لازمتم عقليته وذاكرته منذ كان صغيرا وحتى الآن فهي كأمه التي لا تفارقه ولكن ورغم التشرد وهدم البيوت فان الشاعر ـ الانسان ـ المتعلق بارضه والمتمسك بها والملتحم بها لم يضيع اصله ولم يتنكر له رغم تشرده كما أن عنوانه ومكان بيته وقريته المدمرة لا زالت منقوشة في ذاكرته ووجدانه تماما كما هو الوطن بأكمله ولذلك فالانسان هذا لم يفقد حسبه ونسبه واصله لانه لا زال ملتحما متمسكا بأرضه ـ الام ونتيجة لهذا التمسك ومقاومة التشرد من جانب الانسان يرى الشاعر جميع ابناء شعبه متماسكون ومتمسكون بأرضهم فهم مليون نجمة تضيء سبيل الثائرين وتبدد ليل المستعمر البغيض.

١٨ ـ الفقرة الثامنة عشرة: بداية هذه الفقرة بداية سوداوية حزينة تبعث الاسى والالم وذلك بسبب هجرة الانسان عن أرضه نتيجة ظلم المحتل وتنوع اساليب قمعه ولذلك يصف الابتعاد عن الوطن بأنه موكب جنائزي عاصف فالمهاجر عن وطنه هو في حقيقة الامر منفصل عن امه ومعشوقته انفصالا قسريا واجباريا دون ارادته ورغبته ولذلك نلاحظ ان الانسان يبتعد عن ارضه ـ الام ـ في موكب يبعث على الاسى والحسرة فالراية سوداء ـ فهي حداد وموت حقيقي والميناء ـ تابوت فأن الميناء الذي يرحل الانسان عن طريقه تابوت يضمهم فكأنهم اموات لابتعادهم عن وطنهم وموكب هجرتهم موكب جنائزي خاصة وان الانسان المهاجر يجعل من جسده قنطرة ليمر عليها المهاجرون عن الوطن.

لقد كان موكب الهجرة هذا في مرحلة الندب والبكاء والشكوى والتظلم التي مرت بها القضية الفلسطينية ـ مرحلة الخمسينات وما قبلها ـ ولذلك يصف الشاعر هذه المرحلة بأنها مرحلة الخريف التي يتساقط فيها اوراق الشجر وتصبح الطبيعة فيه حزينة كئيبة تماما كالحالة التي مرّ بها النضال الفلسطيني سابقا.

ولكن ما ان يتغير هذا الوضع فيذهب الخريف بحزنه وآلامه ذهاب حالة الاسترخاء والحزن ـ ويأتي الربيع بزهره وخصبه ونمائه ـ مرحلة الكفاح والمقاومة ـ حتى يصبح الميناء مفتوح لاستقبال العائدين الى ارضهم بعد ان تبين لهم انه لا حياة حرة كريمة خارج وطنهم وارضهم ـ الام ـ ولذلك يصبح قلبه في هذه المرحلة شجرة من اشجار الوطن كله خصب ونماء وعطاء ولذلك يصف الخريف بأنه منهار لان مرحلة الشكوى والحزن ذهبت وانهارت وولدت مرحلة الكفاح ـ الربيع ـ ولذلك فان الشاعر يرمز بالربيع

الى مرحلة الكفاح والوعي أما الخريف فيرمز به الى تلك المرحلة التي اعتمد فيها الانسان على الندب والبكاء في مواجهة الغزوة الصهيونية للارض الفلسطينية ولذلك وصف الخريف بانه منهار كناية عن انتهائه وذهابه نتيجة وعي الشعب والحركة الوطنية.

١٩ ـ الفقرة التاسعة عشرة: يستكمل الشاعر حديثه عن الانسان العائد الى حضن امه ـ الارض ـ بعد هجرة وتشرد فيشير الى تمازج الانسان مع الارض فلغة الانسان امتزجت بكل مظاهر الطبيعة الفلسطينية فاللغة هي خرير الماء الفلسطيني في نهر الاحداث العظام التي تعصف بالانسان والوطن الفلسطيني، فالشاعر هنا عاد مرة اخرى الى اظهار اهمية اللغة القومية في محاربة المحتل ومدى اهميتها في التمسك بالارض فاللغة اصبحت ممزوجة بالطبيعة ولذلك لا يمكن ان تنفصل عن الوطن لانها من مائه وزوابعه وانهاره بل انها اكثر واوضح من ذلك انها مرايا لانها تعكس وجه فلسطين الحقيقي العربي الاصيل فالعدو غريب عن الارض وعن اهلها وعن مائها وطبيعتها عامة كما ان اللغة العربية هي الحنطة التي تنبت في الارض ـ التصاق بالام ـ ويأكلها الانسان ولذلك فاللغة ممتزجة بالارض والانسان معا فلا يمكن للعدو أن يغير هوية فلسطين شعبا وارضا مهما بذل من محاولات يائسة.

ولذلك نرى الانسان الفلسطيني ـ الشاعر ـ لا يخجل من ان يستبدل اللغة ـ القاموس ـ بالقلب الذي هو جزء منه ولكنه يرى ان الانسان من الممكن ان يعيش بقلب غيره او بقلب اصطناعي ولكنه لا يستطيع ابدا ان يعيش بلغة غيره فاللغة هي الهوية وهي الذات والشخصية التي ينعدم الانسان بتخليه عنها ولذلك رأينا الشاعر يمزج اللغة بالارض والانسان معا فمن تخلى عنها تخلى عن ذاته وارضه معا.

٢٠ ـ الفقرة العشرون: لا زال الشاعر يتحدث عن وحدة الارض والانسان فهما توأمان لا ينفصل احدهما عن الاخر فقد ربط بينهما حب ابدي وازلي لا تنفصم عراه وهذا الرباط يزداد قوة وصلابة مع ظهور العدو الذي يهددهما معا ولذلك تزداد اللحمة بينهما ويقوى الترابط اكثر من ذي قبل.

كما ان ظهور الريح التي عصفت بنا وبديارنا فشردتنا كان لا بد منها كي نسكن معا جذع شجرة السنديان الفلسطينية القوية (نرى الشاعر هنا يحلّ في الارض وشجرها ويمتزج معها امتزاجا فلا فرق بينه وبين اي مظهر من مظاهر الطبيعة الفلسطينية وذلك كي يقاوم الانفصال والتشرد عنها) والمعروف ان شمال فلسطين مشهور بهذه الشجرة حتى سميت احدى القرى باسم ـ السنديانه ـ لكثرة ما فيها من هذا الشجر القوي المتجذر بالارض المتمسك بها.

ثم يقرر حقيقة يعرفها القاصي والداني من ابناء الديانة المسيحية وهي ان المسيح عليه السلام لو لم يصبر على صلبه والامه وعذاباته لما استحق اسم الفادي او المخلص ولظل طفلا تائها ضيع حقّه نتيجة لخوفه وجبنه ولكنه صبر على الصلب فكان الصليب له عرشا تربع عليه وكبر في نظر ابنائه ابناء الشعب الفلسطيني الذي صلبه المحتل الغاصب، فلو لم يصبر الشعب الفلسطيني على صلب المحتل له لما استحق هذا الاكبار وهذا التقدير ولسمي جبانا وجاهلا ولكنه صبر وقاوم ولا زال حتى تتحقق له الحرية والاستقلال.

٢١ ـ الفقرة الحادية والعشرون: في هذه الفقرة يمهد الشاعر للكشف عن بعض الاساليب التي يستخدمها المحتل لاثبات صحة دعواه من ان له بعض الحق التاريخي في فلسطين، غير انه لم يئن الاوان لقول هذه الكلمة وفضح ذاك الاسلوب وبيان زيفه وعدم جدواه ذلك لأن الظل لا زال يغطي ضوء القمر اي ان الكفاح ومقاومة الاحتلال لم تزل على اشدها ففلسطين ساحة حرب وميدان معركة بين الانسان والمحتل وقد اتحد الانسان في هذه المعركة المصيرية مع الارض فبعد أن كان عازفا مستريحا لا يقاوم يكتفي بالأمل والشكوى أصبح الآن وترا اي تحول ليتحد بالارض وليصبح بعض مظاهرها ولذلك لم يحن الوقت لذكر تلك الكلمة وسيأتي ذكرها فيما بعد.

٢٢ ـ الفقرة الثانية والعشرون: بالرغم من ان التاريخ ينفي ان تكون فلسطين ارض اليهود فان المحتل قد عمد الى الحفريات الاثرية والاستعانة بالخبراء وبالعلم لاثبات ان لهم في فلسطين جذورا تاريخية ولذلك تكتسب الحفريات الاثرية التي يقوم بها هؤلاء الخبراء بعدا سياسيا واضحا ولذلك نرى الشاعر يجري مقابلة ومقارنة بين عالم الاثار الصهيوني الذي يبحث عن الآثار وفي الخرائب عن دليل مهما كان واهيا يثبت به حقه في فلسطين وان الشعب الفلسطيني ليس الا عابر سبيل في الارض الفلسطينية لا جذور ولا اساس له فيها ولم يشيد فيها حاضرة ولم تكن له فيها حضارة او تاريخ بينما نرى في الجانب المقابل الانسان الفلسطيني يزرع الارض ويفلحها لانه ليس بحاجة كالعدو الى دليل او اثبات ليثبت صحة دعواه في الارض بل انه مطمئن الى مستقبله ومستقبل ابنائه في فلسطين وهنا يظهر حرص اليهود وسعيهم الدائم لتأكيد علاقتهم بالارض ويقابل هذا الحرص والسعي ببرود وفتور من جانب الانسان الفلسطيني نتيجة لثقته الراسخة بان الارض له ولن تقبل سواه.

ولذلك تكتسب الزراعة هنا اهمية خاصة لأنها تستعمل لاثبات مدى تجذر الانسان الفلسطيني بارضه ومدى ارتباطه بها وايمانه وثقته باسترجاعها في المستقبل وهذا الايمان اكده الشاعر في اكثر من مناسبة فهو يقول في «بطاقة هوية».

جذوري... قبل ميلاد السنين رست
وقبل تفتح الحقب
وقبل السرو والزيتون
وقبل ترعرع العشب.

فالفلسطيني في أرضه قبل ميلاد الزمان وقبل الشجر والحجر ولذلك لا نراه بحاجة الى البحث والتنقيب عن حجر او ردم كي يثبت ان له حقا في هذه الارض كما يفعل المحتل الغريب عنها.

فهذه الفقرة تؤكد تجذر العرب في فلسطين وهذا يقود حتما الى الاقرار بان كل ما تحمله الارض من نبات هو من صنعهم ولذلك كانت النباتات تشكل جزءا من الهوية الفلسطينية، كما ان هذه الفقرة تؤكد من جانب آخر ان حسب الانسان ونسبه وشرفه لا يكون بانتمائه القبلي او العشائري بل ان التراب ـ الارض هو الذي يكسب العرب شرفهم ونسبهم ومبرر وجودهم.

٢٢ ـ **الفقرة الثالث والعشرون: يشير الشاعر هنا الى هزيمة حزيران ١٩٦٧م والتي يسميها** غيمة صيف لا تلبث ان تنقشع وتزول لان تلك الهزيمة اعادت الوعي والصحوة الى الانسان الفلسطيني وجعلته يدرك بوعي عميق أساليب المستعمر واهدافه واطماعه واحلامه ولذلك نرى ان تلك الهزيمة قد فضحت وكشفت الدور المهين الذي قام به السلاطين والحكام، فقد اظهرت تلك الهزيمة ان هؤلاء السلاطين وكل من جاء من نسلهم منذ اقدم العصور وحتى اليوم ليسوا الا سرابا فلم يفعلوا شيئا لا للشعب فحسب بل والارض كذلك فالانسان الفلسطيني هو المقتول والمولود في ليل الهزيمة تلك لقد طعنته الهزيمة في ثقته ولكنها جعلته انسانا جديدا ومولودا حديثا لانها اعادت اليه الوعي وجعلته يقف على الحقائق ويصحو من اوهامه واحلامه ولذلك نرى الانسان بعد هذا الوعي يلتصق بأرضه ووطنه بل ويتحد معها ويذوب فيها لأنه متيقن ان وعود السلاطين بالتحرير ليست الا سرابا خادعا.

٢٤ ـ **الفقرة الاخيرة:** بعد هذا الوعي الانساني وهذه الصحوة التي خلقتها الهزيمة وتخاذل السلاطين بعد كل ذلك اصبح لزاما على الانسان ان يتوقف عن القول لينتقل الى العمل الجاد والمشاركة الفاعلة لان العمل هو البرهان الاكيد الذي يعكس حب الانسان لأرضه ووطنه وجميع مظاهر هذا الوطن من انسانه وشجره الى طيره وترابه وقد اصبح لزاما على الانسان ان يدافع عن ارضه بالعمل والفعل خاصة في هذا الوقت الذي يرفع فيه المحتل عصا الظلم والقهر ضد الارض والانسان فالعدو يعمل جاهدا لافتراس القيثارة

ـ اي لافتراس الصوت والنغمة الفلسطينية لانه يحارب كل شيء على هذه الارض لان كل شيء عليها يكره المحتل بل ويحاربه لان كل مظاهر الطبيعة فلسطينية خالصة.

وبما ان الانسان انتقل من مرحلة البكاء الى مرحلة المشاركة الفعلية في المقاومة والكفاح نرى ان الشاعر قد بدأ يستبشر وبدأت بوادر التحرر والاستقلال تلوح في الافق على مرأى من بصره.

وفي الختام وبعد ان استكملت القصيدة شرحا وتحليلا نلاحظ ان ابرز ما ميز الشاعر في قصيدته هذه هو شيوع الرمز فيها من أولها وحتى آخرها غير ان هذا الرمز لم يكن موغلا في التعقيد او الغموض بل هو رمز مفهوم في معظمه، عميق في دلالاته وليس هذا بدعا على شعر المقاومة بل هي ميزة ظاهرة بوضوح في هذا الشعر الذي يخاطب الانسان بشكل عام.

ثم هناك ميزة اخرى واضحة كل الوضوح الا وهي الوحدة الموضوعية التي تجلت في القصيدة في أحسن اشكالها ومظاهرها فالقصيدة كلها تناولت تلك العلاقة الجدلية والازلية التي تربط ما بين الانسان والارض وموقف هذين الطرفين من المعتدي على اي منهما.

ثم هناك ظاهرة وميزة ثالثة في هذه القصيدة وهي أنها تمثل مرحلة الانتقال من عصر الشكوى والبكاء الى عصر الكفاح والتحرر (من الخوف ومن العدو) والمشاركة الفعلية في المقاومة فهي بذلك تمثل مرحلة الوعي القومي التي اعقبت مرحلة الضعف العام التي سيطرت على الذات الفلسطينية والعربية بشكل عام منذ عصر الخمسينات فهذا الجيل الجديد المتمثل في «محمود درويش» جعل من الكلمة الثورية رديفا ومؤازرا للعمل الكفاحي في ساحات النضال الفلسطيني.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل السابع

أبو القاسم الشابي
«ارادة الحياة»

ابو القاسم الشابي
«١٩٠٩ ـ ١٩٣٤م»

حيـــاته:ـ

هو ابو القاسم بن محمد بن ابي القاسم الشابي نسبة الى «الشابية» من اعمال توزر موطنه الاول والاخير حيث ولدبها سنة ١٩٠٩ ودفن بها سنة ١٩٣٤ وبين مولده ووفاته انتقل مع ابيه القاضي الى العديد من المدن التونسية وتعرف على بيئاتها المختلفة واطلع على ما يعاني منه الشعب التونسي من القهر والظلم تحت حكم المستعمر الفرنسي الذي استعمرها منذ سنة ١٨٨١م.

التحق الشابي منذ سنة ١٩٢٠ بجامع الزيتونة واتقن فيه العربية والقرآن الكريم ودروس الادب وأكب على التراث العربي مطالعة ودرسا حتى تكون لديه مخزونا ثقافيا وفكريا واسعا وقد اضاف الى هذا المخزون من التراث القديم ادبا جديدا هو ادب النهضة الحديثة التي شملت اقطار العروبة في مصر ولبنان وسورية والعراق بالاضافة الى الاداب الغربية التي تهل منها الشيء الكثير وفي هذه الفترة ظهر نبوغه الشعري وتبدت شاعريته وقد بلغ من العمر خمسة عشر عاما.

وبعد ان انهى علومه في جامع الزيتونة التحق مرة اخرى بكلية الحقوق وتخرج منها سنة ١٩٣٠ وقد توفي والده مما حمله اعباء جديدة لم يكن مستعدا لها ومما زاد من شدة هذا العبء وثقله هو غزو المرض لجسمه فقد اصيب في هذه الاثناء بتضخم القلب وهو في الثانية والعشرين من العمر مما عجل في وفاته حيث اشتد به المرض في صيف سنة ١٩٣٤ نقل على اثره الى المستشفى الايطالي بتونس العاصمة ليفارق الحياة وينقل جثمانه الى مسقط رأسه ويدفن هناك.

كان الشابي ـ رحمه الله ـ يرى ان التحرر الفكري والادبي هو السبيل الى تحرر الانسان العربي بشكل عام والتونسي بشكل خاص من الاستعمار والجهل وتخليصه من اسر التقاليد والعادات البالية والانعتاق نحو الحرية والاستقلال ولذلك حمل الشابي على المستعمر واعوانه من الرجعيين الذين حاربوا كل محاولة للاصلاح تهدف الى تعليم الشعب وتنويره واخراجه من غياهب الجهل والتخلف الذي حرص المستعمر على استمرارها.

ولذلك نراه يوجه كلامه الى «طغاة العالم» قائلا:

الا ايها الظالم المستبد حبيب الفناء عـدو الحياة

ويتحدث عن المعادين للاصلاح قائلا:

كلما قام في البلاد خطيب ... موقظ شعبه يريد صلاحه
اخمدوا صوته الالهي بالعسـ ... ـف اماتوا صراخه ونواحه
البسوا روحه قميص اضطهاد ... فاتك شائك يرد جماحه

وصف الشابي من قبل عارفيه بأنه كان نحيف الجسم كريم النفس، مديد القامة، سريع الانفعال، حاد الذهن، رقيق الطبع، فياض العواطف، فكها، مغرما بمجالس الادب، وطنيا مخلصا لوطنه ورسالته الانسانية الخالدة.

العوامل المؤثرة في شاعريته:

١ ـ اسرته المتدينة: لقد ورث الشابي من اسرته المتدينة الايمان الصادق والاخلاص العميق لامته ووطنه ورسالته فقد كان ابوه الشيخ محمد بن القاسم الشابي قاضيا ورعا علم ولده مبادىء الدين وثقفه منذ صغره بالحديث الشريف والقرآن الكريم وقد قوى هذه النزعة الدينية عنده دراسته في جامع الزيتونة ولذلك انعكس هذا الاثر في اشعاره وفي دعواته لتحقيق العدالة والمساواة. لذلك نراه يدعو الادباء العرب الى اعادة مراجعة الميراث الحضاري الذي ورثوه وتجديده وتطويره والاستفادة من الغرب بما لا يتنافى وثقافتنا العربية الاصيلة وعاداتنا وتقاليدنا القويمة حتى اعتبر الشابي وبحق في طليعة المجددين الذين قادوا حركة التجديد الشعري في الربع الاول من القرن العشرين.

٢ ـ تأثره بمدرسة الديوان في مصر وما كان يصدر عن ادباء المهجر من نتاج ثقافي يعكس ما كان يسود الغرب من مذاهب فنية ومدارس فكرية هذا بالاضافة الى مطالعاته الواسعة واطلاعه على ما ترجم من هذه الاداب الى اللغة العربية ولذلك نراه يتأثر بالمدرسة الرومنسية ويميل الى نزعة التأمل والعودة الى الذات والانطلاق نحو الطبيعة النقية الصافية الخالية من كل مظاهر الزيف التي سيطرت على معظم مظاهر الحياة الانسانية.

وقد رأى الشابي بعميق بصره وبثاقب فكره ان تفويت الفرصة على المستعمر في تحقيق احلامه لا يكون الا بعدم استسلام الشعوب وتعلقها بالحياة وتمسكها بالحرية والسعي الدؤوب في سبيل تحقيقها وهذا كله لن يتحقق الا بالارادة الانسانية الحية ولذلك نراه يوجه خطابه للناس قائلا:

اذا الشعب يوما اراد الحياة ... فلا بد ان يستجيب القدر

فهو يدعو الى تحرير النفس من ذل الهزيمة وجليها من آثار الاستسلام ويدعوها الى **التمتع بالحياة وفهم اسرارها فهو في ذلك وفي للحركة الرومنسية متأثر بشعراء المهجر**

خاضع للنزعة الصوفية التي ورثها عن ابيه واسرته وجامع الزيتونة.

٣ ـ تأثره بالناقد التونسي المشهور محمد الحليوي الذي كان له بصر عميق بالثقافة الغربية وما يدور في الغرب من مذاهب فكريه وادبية وشعريه متعددة. وكان الحليوي كثيرا ما يلتقيه ويوجهه ويتناقش معه في الكثير من القضايا الادبية والفكرية والانسانية والاجتماعية التي تهم المجتمع التونسي خاصة والشعب العربي عامة.

وقد انعكس هذا الاهتمام في شعر الشابي بشكل واضح عندما جعل الانسان محور شعره والقطب الذي تدور من حوله كل القضايا من مثل التحرر والاستقلال والعدالة.... الخ.

ولذلك كان الشابي ينظر الى المجتمع على انه الجوهر وافراده هم العرض فهو يدعو المجتمع الى التجدد والانبعاث وفي الوقت الذي لا يرى فيه تجاوبا من مجتمعه بينما المستعمر واعوانه يحرصون على تجهيله واستعباده واستنزاف خيراته نرى الشاعر يعود الى نفسه ويرتد اليها حزينا كئيبا يردد قوله:

ليتني لم افد الى هذه الدنيا ولم تسبح الكواكب حولي
ليتني لم أزل كما كنت ضوءاً شائعا في الوجود غير سجين

أطـــوار شـــعره:

لقد مر الشابي في ثلاث مراحل تميزت كل مرحلة بمميزات خاصة واليك هذه الاطوار وابرز ميزات كل طور منها.

١ ـ المرحلة الاولى: وهي مرحلة الادب الاندلسي والمهجري في هذه المرحلة ـ مرحلة الشباب ـ كان الشاعر غزلا مرهفا متأثرا بالاندلسيين في موشحاتهم واشعارهم الساحرة في وصف الطبيعة وجمالها باسلوب عذب رقراق يمتلىء نغما وموسيقى مرصعا بين الحين والاخر بالزخرف والمحسنات فهو في هذه الفترة مقلد للاندلسيين وكأنه الفتى الذي يتلمس طريقه ويبحث عن نفسه الشاعرية. ولم تلبث هذه المرحلة ان تتطور وذلك باتصاله واطلاعه على ادب المهجر وادب النهضة في مصر وسوريا ولبنان والعراق بالاضافة الى ما ترجم من الاداب الفرنسية والغربية الى اللغة العربية ولا سيما ما يتصل بالرومانسية الفرنسية وهذا ما جعل الشاعر هنا عميق الفكر دقيق النظر تعتمل في صدره عوامل الثورة والتغيير بالاضافة الى الامل والالم المختزن في صدره.

٢ ـ المرحلة الثانية: وهي مرحلة مواجهة الموت وتبدأ بوفاة والده سنة ١٩٢٩ وتحمله اعباء مسؤولية الاسرة وصراعه مع المرض الذي دب في جسمه ينهشه دون رحمة او توقف.

في مثل هذا الجو الحزين والكئيب الذي ناء فيه الشاعر باعباء الاسرة والمرض راح

ينظم قصائده في الوجود وفي الطبيعة واصفا سحرها وجمالها ويتغنى بطيرها ونباتها وجميع مظاهرها.

سوف اتلو على الطيور اناشيدي ... وافضي لها باشواق نفسي
فهي تدري معنى الحياة وتدري ... ان مجد النفوس يقظة حسّ
ثم اقضي هناك في ظلمة الليل ... والقي الى الوجود بياسي

٣ ـ المرحلة الثالثة وهي المرحلة الاخيرة من حياته فهي مرحلة الفاجعة المأساة وهي النهاية والموت حيث اشتد عليه المرض واقتربت نهايته فبدأ الشاعر يرى حقائق الوجود والموت كما هي ولذلك نراه هنا يتبرم من الحياة ويسخط منها ويتمنى الموت قائلا:

جف سحر الحياة يا قلبي الباكي ... فهيا نجرب الموت... هيا

اثـــاره:

توفي الشابي وهو لا يزال فتى يافعا له من العمر نحوا من خمسة وعشرين عاما ولكن وبالرغم من هذا العمر القصير فقد خلف لنا من الاثار ما يزال مضرب المثل في الصفاء والوفاء، ومن ابرزها:

١ ـ ديوانه «اغاني الحياة» وقد وردت قصائده في هذا الديوان مرتبة حسب تاريخ النظم.

٢ ـ كتيب بعنوان «الخيال الشعري عند العرب» وهو عبارة عن محاضرة القاها في القاعة الخلدونية باسم النادي الادبي.

٣ ـ آثار اخرى كثيرة لا زالت مخطوطة لم تصل الينا.

إرَادة الحياة

١ـ إذا الشعبُ يوماً أراد الحياة ... فلا بـدّ أن يستجيب القدرْ
٢ـ ولا بد للَيـل أن ينجلـي ... ولا بـدّ للقيـد أن ينكسـر
٣ـ ومـن لم يعانقْه شـوْقُ الحيـاة ... تبخَّـرِ في جـوِّهـا، واندثر
٤ـ فويل لمن لم تَشْقُـهُ الحيـاةُ ... مـن صفْعـة العـدَم المنتصر
٥ـ كـذلك قـالـت لـيَ الكائنـاتُ ... وحـدَّثني روحُـها المستتر
٦ـ ودمـدمـت الرِّيحُ بين الفِجـاج ... وفـوق الجبـال وتحت الشـجر:
٧ـ «إذا مـا طمـحتُ إلـى غايـة ... ركبتُ المُنى، ونسِيتُ الحـذر»
٨ـ «ولم اتجنَّب وعـورَ الشِّعـاب ... ولا كُبَّـةَ اللَّهَـب المستعـر»

٩ـ «ومن لا يحبُّ صعودَ الجبال يعشْ ابَدَ الدهر بين الحُفَر»
١٠ـ فعجَّتْ بقلبي دماءُ الشباب وضجَّت بصدري رياحُ أخر....
١١ـ واطرقتُ، اصغي لقصف الرعود وعزف الرياح، ووقع المطر

★★★

١٢ـ وقالت لَي الارض ـ لما سالت: «ايا امُّ هل تكرهين البشر؟»:
١٣ـ «اباركُ في الناس اهلَ الطموح ومن يستلذُّ ركوبَ الخطر»
١٤ـ «والعنُ من لا يماشي الزمانَ، ويقنع بالعيْش عيشَ الحجَر»
١٥ـ «هو الكون حيٌّ، يحبُّ الحياة ويحتقر المَيْتَ، مهما كبُر»
١٦ـ «فلا الأفق يحضُن ميتَ الطيور، ولا النحلُ يلثم ميتَ الزهر»
١٧ـ «ولولا امُومةُ قلبي الرّؤومُ لَمَا ضمّتْ الميّتَ تلك الحُفَر»
١٨ـ «فويلٌ لمن لم تُشقه الحياة، مِنْ لعنة العدمِ المنتصر!»

★★★

١٩ـ وفي ليلة من ليالي الخريف مثقلةً بالأسى والضجر
٢٠ـ سكرت بها من ضياء النجوم وغنَّيْتُ للحُزْن حتى سكر
٢١ـ سالتُ الدجى: هل تُعيد الحياةُ لما اذبلته ربيعَ العمر؟
٢٢ـ فلم تتكلّم شفاه الظلام ولم تترنَّم عذارى السحَر
٢٣ـ وقال لَي الغابُ في رقّة مُحَبَّبةٍ مثل خفْق الوتر:
٢٤ـ «يجيء الشتاءُ، شتاء الضباب، وسحرُ الثلوج، شتاء المطر»
٢٥ـ «فينطفيء السِّحرُ، سحر الغصون، وسحرُ الزهور، وسحر العطر»
٢٦ـ «وسحر السماء، الشجيُّ، الوديع، وسحرُ المروج، الشهيُّ، العطِر»
٢٧ـ «وتهوى الغصونُ، واوراقها، وازهارُ عهدِ حبيبٍ نضِر»
٢٨ـ «وتلهو بها الريح في كل وادٍ ويدفنها السيلُ، انّي عبر»
٢٩ـ «ويفنى الجميعُ كحُلْمٍ بديع، تالق في مهجةٍ واندثر»
٣٠ـ «وتبقى البذورُ، التي حُمّلَتْ ذخيرةَ عُمْرٍ جميلٍ ، غَبَر»
٣١ـ «وذكرى فصولٍ ، ورؤيا حياةٍ، واشباحَ دنيا، تلاشت زُمَر»
٣٢ـ «معانقةً ـ وهي تحت الضباب، وتحت الثلوج، وتحت المَدَر»
٣٣ـ «لطَيْفِ الحياة الذي لا يُمَلُّ، وقلبِ الرَبيع الشذيِّ الخضِر»
٣٤ـ «وحالمةً باغاني الطيور، وعِطرِ الزهور، وطعمِ الثمر»

٣٥- «ويمشي الزمان، فتنمو صروف، وتذوي صروف، وتحيا أخَرَ»
٣٦- «وتُصبِحُ أحلامها يـقظةً، مُوَشحةً بغموض السَّحَر»
٣٧- «تُسائل: أين ضباب الصباح، وسِحْرُ الماء؟ وضـوء القمر؟»
٣٨- «وأسرابُ ذاك الفَراشِ الأنيقِ؟ ونحلُ يغنِّي، وغيمُ يمر؟»
٣٩- «وأين الأشعةُ والكائنات؟ وأين الحياة التي أنتظـر؟»
٤٠- «ظمئتُ إلى النور، فوق الغصون! ظمئت الى الظل تحت الشجر!»
٤١- «ظمئتُ إلى النبع، بين المروج، يغنِّي، ويرقص فوق الزَّهَر!»
٤٢- ظمئتُ إلى نَغَمات الطيور، وهَمْس النَّسيمِ، ولحنِ المطـر،»
٤٣- «ظمئتُ إلى الكون! أين الوجودُ وأنى أرى العالَم المنتظر؟»
٤٤- «هو الكونُ، خلف سبات الجمود، وفي أُفُقِ اليقظات الكُبَر»
٤٥- «وما هو إلا كخفق الجناح حتى نما شوقُها وانتصر»
٤٦- «فصَدَّعت الأرض من فوقها وأبصرت الكونَ عذبَ الصُّوَر»
٤٧- «وجاء الربيعُ، بأنغامه.. وأحلامه، وصِبَاه العِطر»
٤٨- «وقبّلها قُبَلاً في الشفاه، تعيد الشباب الذي قد غَبِر»
٤٩- «وقال لها: قد مُنحتِ الحياةَ، وخُلِّدْتِ في نسلك المُدَّخَر»
٥٠- «وباركَكِ النُّورُ، فاستقبلي شبابَ الحياة وخصبَ العُمُر»
٥١- «ومن تعبد النورَ أحلامُه، يُبَاركُهُ النُّورُ أنّى ظهر»
٥٢- «إليك الفضاءَ، إلكِ الضياء، إليك الوجودَ، الرحيبَ، النضِر!»
٥٣- «إليكِ الجمالَ الذي لا يَبيدُ إليكِ الوجودَ، الرحيبَ، النضـر!»
٥٤- «فميدي ـ كما شئتِ ـ فوق الحقول، بحلو الثمار وغضِّ الزَّهَر»
٥٥- «وناجي النسيَم، وناجي الغيومَ، وناجي النجومَ، وناجي القمر»
٥٦- «وناجي الحياةَ وأشواقَها،د وفتنةَ، هذا الوجود الأغـر»

★ ★ ★

٥٧- وشفَّ الدجى عن جمالٍ عميقٍ، يشُبُّ الخيالَ، ويُذكي الفِكَر»
٥٨- «ومُدَّ على الكون سِحرٌ غريبٌ، يُصَرِّفه ساحرٌ مقتدر»
٥٩- «وضاءت شموعُ النجوم الوضاء، وضاع البَخُورُ، بخور الزَّهَر»
٦٠- «ورفرف روحٌ، غريبُ الجمال بأجنحةٍ من ضياء القمر»
٦١- «ورنَّ نشيدُ الحياة المقدَّسُ في هيكلٍ، حالمٍ، قد سُحِر»
٦٢- «واعلِنَ في الكون: أنَّ الطموحَ لهيبُ الحياةِ، ورُوحُ الظفَر»
٦٣- «إذا طمحتْ للحياة النفوس فلا بدّ ان يستجيب القـدر!»

الدراسة الأدبية:ـ

القصيدة بكاملها تتحدث عن ارادة الحياة لدى الشعب بحيث يجعل الشاعر هذه الارادة الشعبية شرطا اساسيا للحياة الحرة الكريمة، ويورد في اثناء ذلك الكثير من الادلة على تلك الحقيقة التي يقررها من خلال دعوة الانسان للنظر الى مختلف مظاهر الطبيعة وجميع مناحي الحياة ولذلك يبدأ قصيدته بتقرير ما يلي:ـ

من البيت ١ ـ ٥: يقول الشاعر ان شرط استجابة القدر للانسان هي ارادة ذلك الشعب في الحياة فعندها لا بد للقدر الا ان يستجيب لهذه الارادة الشعبية العارمة في الحياة الحرة الكريمة ويبدأ الليل بما فيه من ظلمة وقسوة بالزوال وطلوع الفجر المشرق على الشعب الابي الذي تتكسر على ارادته الصلبة قيود الذل والعبودية، فالويل كل الويل للانسان الذي يرفض الحياة الحرة ويرضى بالذل والاستعباد بديلا فهذا سيزول لا محالة دون ان يكون له اية ذكرى فالموت هو مصير كل انسان وهو المنتصر دائما فلا مبرر للانسان في ان يكون جبانا في مواجهة الظلم فالكائنات الحية جميعها تثبت ذلك فهذه سنة الحياة عند جميع المخلوقات وهذا هو سر وجودها في هذه الحياة، فيبدأ بذكر مظاهر الطبيعة ليثبت للانسان ان الحياة الحرة الصافية رهن بارادته القوية.

٦ ـ ١١: ولذلك يبدأ بضرب المثل من صوت الرياح التي تهب في الصحاري والاودية وعلى الجبال وتحت الاشجار فيصور الشاعر للانسان ان لسان تلك الريح يقول انني اذا ما اردت تحقيق غاية نبيلة او الوصول الى هدف سام فانني اركب من اجل ذلك الصعاب واتحمل من اجله المشاق ولم اتردد ابدا في الهبوب على الشعاب والاودية السحيقة والاماكن الوعرة ولا حتى الهبوب على الحرائق والنيران من اجل الوصول الى هدفي وتحقيق غايتي التي هببت من اجلها وهكذا يجب ان يكون الانسان الذي يسعى الى الحرية والاستقلال فعليه ان يخوض من اجل ذلك النيران والصعاب ويتحمل المشاق والاحداث الجسام لان ثمن الحرية غال وباهظ فثمنه دماء طاهرة ونفوس زكية وآلام كثيرة فمن يتقاعس او يتردد سيعيش طوال حياته مستعبدا مظلوما حقوقه مهدوره وكرامته ممتهنة فهكذا قالت لي الريح وعلى الانسان ان يقتدي بها ويفعل فعلها كي ينال امنياته ويحقق احلامه والا اندثر واهمل في هذه الحياة واعتبر ميتا وهو حي وليست الريح وحدها التي قالت لي ذلك بل تلك الرعود القاصفة ايضا وما تبعها من مطر وخير وبركة فهذه هي طبيعة الحياة تحب من يخاطر ويغامر من اجل اهدافه السامية ويضحي من اجل الوصول الى تلك الغايات والاهداف وانه لا مكان لهؤلاء الجبناء المخذولين فلا تكن اخي الانسان المضطهد المستعمر من هؤلاء بل كن كتلك الريح والرعود تركب الاخطار وتتحدى الصعاب والعقبات للوصول الى حريتك وتحقيق امانيك.

١٢ ـ ١٨: وبعد ان استغل الشاعر دمدمَتْ الريح وصوتها لبعث الحمية في نفوس الناس للثورة على المستعمر ونزع استقلالهم انتقل الى الارض ليأخذ منها العبرة وليبرهن للانسان ان أمنا ـ الارض ـ تبارك الانسان الطموح الذي يتطلع دائما الى الاعلى ويأنف الذل والاستعباد بل انه يستعذب الموت في سبيل تحقيق اهدافه النبيلة الشريفة وتلعن بالمقابل الانسان الخانع الذليل الذي يرضى بما يمن به عليه المستعمر فهذا لا فرق بينه وبين الحجر الجامد الذي لا احساس له ولا مشاعر ولا طموحات ولا اهداف يسعى من اجلها فهذا الكون حي يضج بالحياة ويحترم ويقدر كل من يحبها ويقاتل في سبيل هذا الحب اما الانسان الجامد عديم الطموح والمسؤولية فهو والميت سواء ولذلك فهو نقيض لمعنى الكون والحياة النشطة المليئة بالحركة والحيوية في كل لحظة فهذا النوع من الانسان يرفضه الكون ويتنكر له ولوجوده فلم نشاهد ولو مرة واحدة ان هذا الفضاء الواسع احتضن طائرا ميتا وكذلك الكون والارض لا تحتضن الانسان الميت الجامد كما اننا لم نر النحل يمتص الرحيق من الزهر الميت بل إن الارض ـ الام ـ لو لا عاطفة الامومة والحنان التي تحتفظ بها للانسان لما قبلت ان يدفن في جوفها هذا الانسان الجامد الذي لا وجود له في الحياة ثم يكرر الشاعر تحذيره للانسان الخانع الجامد الذي لا يمتلك طموحا او غايات يسعى لتحقيقها وهو تحذير للشعوب من ان تستمر في خنوعها وذلها ورضاها بالمستعمر الدخيل الذي ينهب خيراتها ويستغل طاقاتها ويحرم ابناءها من ابسط مقومات العيش الكريم.

١٩ ـ ٣٤: تسيطر على الشاعر في هذه الفقرة الروح الرومانسية الحالمة كيف لا؟ وقد عضت الالام جانبيه وبدأ يشعر بقسوة المرض وقرب ايامه في هذه الحياة، ولذلك نراه يسرح النظر والفكر في ليالي الخريف حيث ذهاب الخضرة والحيوية ـ عصر الشباب ـ ومقدم عصر الشيخوخة والكهولة على هذا الكون، فينظر الى هذا الكون وما يسوده من وحشة وحزن حيث تتساقط الاوراق وتتعرى معها الاغصان (الشاعر هنا يتذكر شبابه قبل المرض وما آل اليه حاله بعد المرض) يبدأ الشاعر هنا يستفهم من الظلام قائلا: هل يعود الربيع وتعود الخضرة والحيوية الى تلك الاشجار والنباتات العارية؟؟

غير ان الشاعر لم يتلق الاجابة مباشرة من الظلام بل ان الذي يبدأ بالاجابة عن تساؤله ذاك هو الغاب في صوت عذب ورقيق فيبين للشاعر كيف تتبدل الفصول فيأتي الشتاء بمطره وثلوجه وضبابه فتذهب نتيجة لذلك الغصون النضرة الجميلة والزهور العطرة والمروج الخضراء ويذهب معها جمال السماء حيث تتلبد بالغيوم وتتهاوى

الاغصان والاوراق ويذهب معها جمالها وسحرها الفتان وتبدأ الريح تلهو وتلعب بالاوراق المتساقطة ويجرفها سيل الماء الجاري ويدفنها بالاتربة والرمال وتصبح تلك الخضرة والنضارة والجمال حلما بعد ان كان حقيقة يتمتع الانسان بمناظرها الخلابة غير ان بذور تلك النباتات التي تحمل معها الحياة والنماء تبقى مدفونة في باطن الارض تنتظر بشوق عميق طيف الحياة الجميلة واغاني الطيور وعطر الزهور وطعم الثمار بعد ان يهدأ الشتاء ويذهب معه البرد القارس والسيول الجارفة (الشاعر هنا يكشف للانسان ان الحياة متغيرة ومتقلبة فيوم لك ويوم عليك والايام دول فان كان هذا هو يوم المستعمر وعصره فان غدا هو عصر الشعب وانتصاره، كما يبين للشعب اهمية العناية بالشباب وهم الجيل الجديد ـ البذور ـ الذين سيبعثون الحياة من جديد ويصنعون المستقبل المشرق للامة والغد الباسم لابنائها، كما يوضح الشاعر من خلال هذه الفقرة ان التغير الذي يطرأ على الحياة ما هو الا تغير شكلي ظاهري أما ما ينفع الناس فيستقر في الارض ـ البذور ـ واما الزبد ـ الشكل ـ فيذهب هباء فالاصل هو الانسان الذي يملك بارادته الواعية القوة والقدرة على التغيير وجعل الاحلام حقيقة واقعة).

٣٥ ـ ٤٤: ويستمر الشاعر في وصف دورة الحياة فيقول: ومع تقدم الزمن ومرور الوقت تطرأ اشياء جديدة وتتطور اشياء قديمة بينما تموت اخرى في هذا الوقت الذي تلد فيه اشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل وتنمو اشياء اخرى كانت ذاوية ومتوقفة النمو من قبل ـ في هذا الوقت يتحقق الحلم الذي طالما حَلَم به الانسان وحلمت به الطبيعة عندما تساءل عنه بقوله: هل تعيد الحياة لما اذبلته ربيع العمر؟؟

ففي هذه الفقرة جاءت الاجابة عندما اصبح الحلم حقيقة وعادت الحياة الى الكثير من الاشياء ونمت وتطورت اشياء اخرى نتيجة نزول المطر وقت الشتاء وتبدأ هذه المخلوقات الجديدة تتساءل في استغراب وتعجب اين ذهب الضباب واين ذهب غيم الشتاء، واين ذهب الماء الجاري؟؟

فهذه المخلوقات الجديدة والموجودات الحديثة التي وجدت بعد فصل الشتاء تبحث جاهدة عن النور والضوء الذي طال انتظارها له طيلة فصل الشتاء البارد فهي في شوق شديد الى الضوء والى الظل تحت الاشجار في الصيف، كما انها تتوق الى رؤية النبع الصافي الذي يسقي المروج والسهول الخضراء والذي يظهر في الصيف بعد توقف هطول الامطار تحوطه الازهار والطيور المغردة، فالحياة والوجود والنشاط والحركة ثبت انها

موجودة بعد السبات الذي استمر طيلة فصل الشتاء وما تبعه من يقظة كبرى لمختلف الكائنات الحية (الشاعر هنا يثبت ومن خلال الطبيعة ان الشعب مهما طال سباته وغفوته فلا بد له بعد هذا السبات الطويل والعميق من صحوة وثورة عارمة على مضطهديه ومستغليه فهذه هي سنة الحياة وحتمية طبيعية لا تحتمل الشك ولا تقبل النقاش فهذه الفقرة دعوة للتفاؤل والثقة في المستقبل، وزرع الامل في نفوس الناس كي لا يستكينوا ولا يخضعوا مهما طال امد الظلم والاستعمار فلا بد من ذهاب الشتاء ببرده ومجيء الربيع بزهوره وطيوره وينابيعه).

٤٥ ـ ٥٦: ويتابع الشاعر حديثه عن تلك المخلوقات الجديدة التي نمت ووجدت بعد فصل الشتاء الطويل، فيقول: وما ان يمر وقت قصير حتى نجد ان شوق تلك الموجودات الى الحياة والنور قد تطور وكبر فصدّع الارض وشققها لتخرج تلك النباتات الجديدة وتعود الحياة الى الارض من جديد وتأتي معها بالنور وبالضياء وبالحركة والسحر والجمال فترى الربيع قد اقبل بوجهه الطلق وبانغامه الحلوة وبشبابه الغض الطري الذي يعيد الى الارض شبابها وفتوتها التي زالت طيلة فصل الشتاء البارد وبذلك تكون الارض قد بُعِثَت اليها الحياة من جديد عن طريق ذريتها ونسلها ـ البذور ـ التي دفنت في بطنها في فصل الشتاء ـ فالذرية والنسل يخلدان الانسان والحياة على حد سواء فلئن مات الانسان فان حياته مستمرة في عقبه من بعده وهكذا الارض التي اعيدت لها الحياة عن طريق ذريتها ـ البذور ـ وبما ان الارض بعثت اليها الحياة من جديد نراها تتمتع بالنور وبحياة الشباب المتميزة بالخصب والنماء وكثرة التوالد والنسل وليس هذا الامر بدعا او غريبا بل ان الواقع يؤكد ان من يحلم بالنور والضياء والحرية والاستقلال سيباركه النور ويرحب به في اي مكان يظهر وفي كل وقت يراه فيه فكل ما تفكر به وتحلم به لا بد لك من تحقيقه يوما ما لأنه هو ايضا يحب ويكبر هذا الانسان الطموح الشجاع الذي لا يعرف اليأس او الخذلان.

وبما ان تلك البذور قد صبرت على ظلمة جوف الارض طيلة فصل الشتاء ولم تفقد الامل في رؤية الضوء والضياء فقد تحقق لها اخيرا هذا الحلم الذي طالما حلمت به وصبرت عليه وهكذا يجب ان يكون الانسان صبورا قوي العزيمة والارادة مهما طال ليل المستعمر فلا بد ان يستجيب القدر ولا بد لقيد العبودية والذل ان ينكسر.

ولذلك كان جزاء هذا الصبر الطويل للبذور التمتع بالحياة والنور والانتشار على قمم

الجبال الخضراء الجميلة وفي الاودية المعشبة الغناء تناجي نجوم السماء اللامعة وقمرها المضيء وتناغي الطيور والفراش الجميل على الزهر والرياحين تداعبه النسائم الرقيقة.

(الشاعر هنا يؤكد للانسان ان الطبيعة نفسها توّاقة للحرية وللضياء والنور مهما مر عليها من ظلمة ليل الشتاء وبرده القارس وانعدام النمو فيه فالأولى والأجدر بالانسان ان يأخذ العبرة والعظة من الطبيعة الجميلة ومظاهرها المختلفة في حُبها للحرية فيتطلع اليها ويعمل من اجلها دون كلل أو ملل).

٥٧ ـ ٦٣: ويتابع الشاعر حديثه فيقول: ويكشف الدجى والظلام عن جمال هذه الطبيعة الخلاقة وهذا ما يعطي الخيال فرصة للتحليق في عالم الطبيعة الجميل خاصة وقد شمل هذا الكون سحر وجمال لم نعهده من قبل في غيره من الفصول حيث تنتشر الروائح العبقة وتضيء النجوم في السماء بتألق وسحر وكذلك القمر يظهر متالقا في السماء كأنه طائر ذهبي يرفرف بجناحيه، وتسمع اصوات المخلوقات من (طيور وحشرات وحيوانات) وكأنها نشيد ديني جميل ومتناسق في معبد مقدس يعلن للعالم وللكون اجمع أن الطموح والارادة هما سر الوجود الانساني واساس الظفر والانتصار على جميع مظاهر الظلم والاستعباد التي يتعرض لها الانسان او تتعرض لها الطبيعة ولذلك ليس على الانسان اذا اراد ان يعيش ظافرا منتصرا ومتمتعا بحريته واستقلاله الا ان تكون له ارادة فاعلة وقوية وطموح ورغبة في العيش الكريم، فهناك قاعدة ثابتة وراسخة هي ان النفوس اذا ما ارادت الحياة الحقيقية بشرف وكرامة فلا بد ان يستجيب القدر لهذا الطموح ولهذه الارادة فالمعوّل اولا واخيرا على الانسان وارادته وطموحه.

وهكذا ينهي الشاعر قصيدته بمثل ما بدأها به من التأكيد على مبدأ الطموح والارادة الانسانية التي تتحقق امامها كل الامال ويُتغلب بها على كل الصعاب والعقبات فهي الاصل في كل ما يحققه الانسان.

ولذلك نرى الشاعر يستنطق جميع مظاهر الطبيعة (الريح، الارض، الدجى، الغاب، الربيع) ليثبت ما ذهب اليه وليحفز الانسان المضطهد والمستعمر لرفض هذا الذل والاستعمار لان الطبيعة حرة وتحب الحرية ولان الارض حية وتحب الحياة ولا مكان فيها للضعفاء.

لقد أدرك الشابي بنظره العميق ورؤيته البعيدة أنّ نهضة الشعب لا يمكن ان تقوم الا على الوعي والتغلب على ظلمة الجهل والتخلف ولذلك نراه يؤكد المرة تلو المرة ان الحياة الحرة الكريمة حق لكل انسان وان الخنوع والاستسلام مدعاة للظلم والطغيان فراح يطلق صوته ملتهبا كي يوقظ شعبه من سباته العميق مؤكدا في كل مناسبة ان

التحرر والتقدم ليس الا عمل ارادة شعبية واعية ويقظة وان هذا الوعي لا يأتي الا بالعلم والثقافة ولذلك دعا بقوة الى التعليم والتغلب على الجهل المتفشي في معظم فئات وطبقات المجتمع التونسي.

وباختصار شديد لقد روى لنا الشاعر في قصيدته هذه فلسفته في الحياة والوجود كما رآها وخبرتها نفسه المتألمة.

الدراسة الفنية:ـ

١ ـ لقد اعتبر الشابي في طليعة المجددين الذين قادوا حركة التجديد الشعري في الربع الاول من القرن العشرين، ولذلك نراه يدعو الادباء العرب والمفكرين الى مراجعة الميراث الحضاري الذي ورثوه وتجديده وتطويره وتنقيحة والاستفادة من الغرب بما لا يتناقض وثقافتنا العربية الاصيلة، وتقاليدنا الراسخة القويمة.

كان الشابي يرى في التحرر الفكري والادبي تحريرا للانسان العربي عامة والتونسي خاصة من اسر التقاليد البالية ومن الظلم السياسي والاجتماعي الواقع عليهم من المستعمر ولذلك كان الشابي ثائرا على المستعمر الذي استباح تونس منذ سنة ١٨٨١م داعيا الى الحرية والانعتاق من اسر القديم الذي يحرص المستعمر على بقائه وترسيخه لان في بقائه بقاء للمستعمر نفسه ولمصالحه واطماعه.

لقد رأى الشابي بعميق بصره وبثاقب فكره ان تفويت الفرصة على المستعمر في تحقيق اهدافه واحلامه لا يكون الا بعدم استسلام الشعوب وتعلقها المستميت بالحياة والسعي الدؤوب في سبيل تحقيق الحرية والاستقلال وان هذا لا بد من ان يتحقق ما دامت الارادة الشعبية حية وقوية في الصدور ولذلك نراه يوجه خطابه للناس قائلا:

اذا الشعب يوما اراد الحياة.....

فهو يدعو الى تحرير النفس الانسانية من ذل الهزيمة وجليها من آثار الاستسلام ويدعوها الى التمتع بالحياة والى فهم اسرارها فهو في ذلك متأثر بشعراء المهجر وما يتمتعون به من رومانسية علاوة على اطلاعه على ما ترجم من الآداب الغربية ولا سيما ما يتصل بالرومانسية الفرنسية ولذلك كان شعره يصدر عن فكر عميق ونظر دقيق مع ما يعتلج به صدره من عوامل الثورة واليأس، والالم والامل كما يتجلى ذلك في قصيدته هذه.

هذا بالاضافة الى وقوعه تحت تأثير النزعة الصوفية التي اثرت عليه نتيجة لاسرته المتدينة وتربيته الدينية، انظر معي الى هذا الجو الطقوسي الذي اختتم به قصيدته:ـ

وضاعت شموع النجوم الوضاء .....
ورفرف روح غريب الجمال .....
ورن نشيد الحياة المقدس في هيكل .....

٢ ـ نظر الشابي الى المجتمع باعتباره الجوهر وافراده العرض ولذلك يدعو المجتمع الى التجدد والانبعاث فالافراد يذهبون بينما المجتمع هو ا لباقي، ولكن عندما يرى مجتمعه لا يتجاوب معه ولا يحرك ساكنا ضد المحتلين والمستعمرين والنفعيين نراه يرتد الى نفسه حزينا كئيبا يصارع المرض والالام وتسيطر عليه روح التشاؤم واليأس والخذلان فيلجأ الى الطبيعة يحتمي بها فيتغنى بسحرها وجمالها ويفرغ فيها الامه واحزانه وعليه فقد سيطر جو الحزن والكآبة على القصيدة، ولذلك نرى الشاعر يلجأ الى الطبيعة وجميع مظاهرها ليثبت للانسان صحة ما يدعو اليه ويقاسي من اجله.

٣ ـ تميز الشابي بصدق العاطفة فهو لا يقول الا متأثرا او ثائرا ولا ينظم الا استجابة لالم او امل او تشاؤم ولذلك فقد اخلص الشاعر لرسالته الاجتماعية التي حملها على عاتقه ليعيد الوعي الى ابناء شعبه ويرسم لهم طريق الخلاص والتحرر وينقذهم من الجهل واليأس والاستسلام للمستعمر الذي حرص على ترسيخه في نفوسهم كي يبقوا مطية سهلة له لتحقيق اغراضه واطماعه في السيطرة والتحكم.

لقد كان الشابي رجلا وطنيا محبا لوطنه صادقا في حبه واخلاصه له ويرى ان لرجال العلم والفكر في المجتمع رسالة انسانية عليهم القيام بها والاخلاص لها وقد جعل الشاعر من نفسه القدوة في ذلك طيلة فترة حياته القصيرة.

٤ ـ قلنا ان الشابي قد تأثر باسرته الدينية والمتدينة فورث منها الايمان العميق والاخلاص الصادق لامته ووطنه ورسالته كما وردت اليه العقلانية من الاداب الغربية وبخاصة الفرنسية مما اثار الشكوك في نفسه خاصة عندما راى ما يحل بوطنه وامته من نكبات وظلم ولذلك تمثل الوجود في نظره صراعا بين القوة والحياة وان المنتصر في هذه المعركة الدائرة هو صاحب الارادة الصلبة والذي يصمد في وجه العواصف دون خوف او تردد ولذلك نراه يزدري التخاذل والمتخاذلين ويكبر القوة والاقوياء فالارض في نظره مليئة بالخير والشر واللبيب فيها من يتسلح بالحزم والقوة والارادة الواعية فهو يهاجم المجتمع الجامد المتحجر ويدعو دائما الى التجديد في الحياة.

٥ ـ كان الشابي يحمل بين جوانحه عاطفة انسانية تحمل هموم الناس قبل همومه ولذلك كان اذا ما استولى الالم على نفسه فزع الى العزلة والتشاؤم والتأمل العميق للذات التونسية الرازحة تحت الظلم والاستعباد ورأى من نفسه ظاهرة من ظواهر الطبيعة فسيطرت على روحه نزعة رومانسية عميقة وبالاجمال لقد حمل الشابي آلام امته وشعبه وقدمها على آلامه الفردية.

٦ ـ لقد تميز شعره بالسلاسة والسهولة والرقة والحرارة وقوة التأثير واعتماد الصور والتشبيهات الكثيرة لترسيخها في ذهن القارىء وعليه فقد جمع الشاعر الى اسلوبه التعبيري المؤثر، السهولة والروعة في الابتكار، والبساطة في التعبير مع السمو في المعنى.

٧ ـ واخيرا فقد اعتمد الشاعر الاسلوب الحواري اللطيف المتصف بالبساطة والعمق في آن واحد والبعد عن الغموض او التعقيد.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ ابراهيم علي ابو الخشب، تاريخ الادب العربي في العصر الحاضر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.

٢ ـ احمد أمين ورفيقاه، ديوان حافظ ابراهيم، دار العودة: بيروت (لا. ت).

٣ ـ احمد شوقي، الشوقيات، المكتبة التجارية الكبرى، دار الكتاب العربي: بيروت (لا.ت)

٤ ـ حسني محمود، شعر المقاومة الفلسطينية (دوره وواقعة في عهد الانتداب) الوكالة العربية للتوزيع والنشر الزرقاء. (لا. ت)

٥ ـ حنا الفاخوري، الموجز في الادب العربي وتاريخه، دار الجيل: بيروت ١٩٨٥، الطبعة الاولى «جديدة ومنقحة».

٦ ـ خالده السعيد، حركية الابداع «دراسات في الادب العربي الحديث» دار العودة: بيروت ١٩٧٩ الطبعة الاولى.

٧ ـ رجاء النقاش، محمود درويش، شاعر الارض المحتلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت، ١٩٧٢ الطبعة الثالثة.

٨ ـ زياد صالح الزعبي، ديوان مصطفى وهبي التل «عشيات وادي اليابس» المؤسسة الصحفية الاردنية: عمان، ١٩٨٣.

٩ ـ شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف: القاهرة، الطبعة السابعة (لا . ت).

١٠ـ عزالدين اسماعيل، ديوان ابي القاسم الشابي، دار العودة: بيروت، ١٩٧٢.

١١ ـ علي الجارم ورفيقه، ديوان البارودي، وزارة المعارف العمومية، المطبعة الاميرية: القاهرة ١٩٥٤.

١٢ ـ عمر الدسوقي، محمود سامي البارودي، دار المعارف: القاهرة، الطبعة الرابعة (لا. ت)

١٣ ـ عمر محمد الطالب، قراءة ثانية في البارودي، ١٩٨١ (لا.ن) (لا. مط).

١٤ ـ غسان كنفاني، ادب المقاومة في فلسطين المحتلة، مؤسسة الابحاث العربية: بيروت ١٩٨٢ الطبعة الثانية.

١٥ ـ فاروق شوشة، احلى (٢٠) قصيدةحب في الشعر العربي، مكتبة مدبولي: القاهرة (لا.ت).

١٦ ـ محمد القاضي، الارض في شعر المقاومة الفلسطينية، الدار العربية للكتاب: ليبيا ـ تونس ١٩٨٢.

١٧ ـ محمود تيمور، اتجاهات الادب العربي في السنين المائة الاخيرة، مكتبة الاداب ومطبعتها: القاهرة (لا.ت)

١٨ ـ محمود شحادة عليان، الجانب الاجتماعي في الشعر الفلسطيني الحديث، (لا.ن) (لا.ت).

١٩ ـ نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين: بيروت، ١٩٧٨، الطبعة الخامسة.

٢٠ ـ نعمات احمد فؤاد، خصائص الشعر الحديث، دار الفكر العربي: القاهرة، (لا.ت).

٢١ ـ ياسين الايوبي، مذاهب الادب «معالم وانعكاسات» دار العلم للملايين: بيروت، ١٩٨٤ الطبعة الثانية.

٢٢ ـ يعقوب العودات «البدوي الملثم»، عرار شاعر الاردن، دار القلم: بيروت، ١٩٨٠.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دار
المستقبل للنشر والتوزيع
عمان ـ الاردن
ص ب ١٨١٤٢٤٨ ـ هاتف ٦٣٦٣٢٧